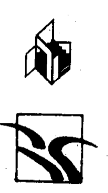
رسّام الأرانب

قصص

أحمد الشيخ



320
أصوات أدبية

رسام الأرانب

* رسام الأرانب
* قصص : أحمد الشيخ
* (320)
* موتيفة الغلاف : عمر جهان
* التدقيق اللغوى : عـــادل سميح
* الطبعة الأولى : فبراير ٢٠٠٢

* المراسلات: باسم مدير التـــحرير
على العنوان التالى :
١٦أ ش أمين سامـــى - قصر العـــينى
القـــــاهرة - رقم بـــريدى : ١١٥٦١

*

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

رسام الأرانب

وقلت لنفسى بينى وبين نفسى «لا تتعب روحك يا ولد بمداومة الرقاد فمهما طال نومك لن تراها أو يبين لك طيفها فى غبشة الحلم المعاد». كنت قد عودت نفسى على الرقاد المتواصل، والرقاد- كما كانت تقول لنا فى سالف الأيام - موت بالإرادة يسبق الموت الجبرى، كان من الممكن أن أتباعد عن تلك الحالة التى سيطرت على بدنى، حالة الاستسلام الكامل للرقاد رغم الصحو الكامل فى أغلب الأحيان، صحو خلايا المخ وصحو الذاكرة، صحو الأطراف رغم التمدد بتراخ وليس باستراخاء، فى السابق كانت تنصحنا وهى تحتوينا فى حضنها الحنون :

- النوم نوم والصحو صحو واللعب لعب والشغل شغل.

وكنت مثلهم أفعل الأشياء فى أوقاتها، لم تكن الدنيا من حولى قد تداخلت وساحت ألوانها إلى هذا الحد، كان

التداخل موجودا بالقطع لكنه كان يتواجد فى مناطق بعينها على أطراف الحدود الفاصلة بين الألوان، لكنه حدث أن رقدت مرة أو عدة مرات متواصلة، رقدت وقمت، نظرت إلى صورتى المعكوسة على سطح المرآة القديمة التى ورثتها عن أمى، نفس المرآة المصقولة المحايدة التى تعكس كل شىء بنفس ألوانه دون تبديل أو تعديل لأى شىء، وكانت هى تباهى بتلك المرآة وتسميها «الصادقة» أو «التى لم تكذب أبدا» وكنا مثلها نصدق تلك المرآة، نقف قبالتها وننظر فى هندامنا، نتأكد من تجانس ألوان الثياب أو اتفاقها مع الحذاء الملبوس، وكانت البنات تعشقها عشقا، يتبادلن الوقوف أمامها كل صباح ويتزاحمن ويتضاحكن ويتخاصمن ويتصالحن، وربما ترقب الواحدة منهن ملامحها على سطحها إذا بكت ثم تنفجر فى الضحك لأنها اكتشفت أن شكلها يدعو إلى الضحك، كانت مثل هذه الحالات تحدث فى بيتنا بشكل متكرر بسبب تلك المرآة «الصادقة» أو «التى لا تكذب أبدا»، ولابد أنه بمرور الأيام تعلمت مرآتنا الكذب فى غفلة منا، تعلمت

الكذب إلى حد أننى وأنا واقف قبالتها فى المرة الأخيرة رأيت وجه الأرنب، نفس وجه الأرنب الذى كنت أراه فى أحلامى يطاردنى وأفر منه، أرنب أبيض كبير فى حجم أسد أو ربما حجم فيل لكنه أرنب، وفى أحلامى كنت أخشى أن يطولنى أو حتى يلمسنى فيحولنى إلى شخص آخر يمتاز بالذعر المتواصل غير المبرر، شخص يتميز بالخوف من الخيال السارح أو الظل الثابت، شيء مثل هذه الفكرة كان يتلبسنى فى كل منام فأقوم مفزوعا لأجد أمى واقفة إلى جوار فراشى كأنها حارس متيقظ لا ينام الليل تسألنى إن كنت قد رأيت نفس الحلم فأجاوبها بالإيجاب أشعر بشيء من الفرح لأنها موجودة فى المكان وقادرة على حمايتى، وأشعر أيضا بشيء من الدهشة لأنها تعرف تفاصيل الحلم وتصفها كما لو كانت هناك ترانى وتتخلل خلايا عقلى ومشاعرى ونبضات قلبى داخل الحلم، ولا أحدثها عن الدهشة واكتفى بطلب حمايتها لى فتوصنى بتغطية أعضائى جيدا أثناء النوم لأن العرى يولِّد الكوابيس، أطاوعها وأعاود الرقاد، ونادرا ما كنت

أرى نفس الأرنب مرة أخرى خلال نفس العام فى الحلم المتكرر.

* * *

كان أخى الأكبر يزرع الأرض ويمنح للدار حبوب الخبز وفاكهة الصيف وفاكهة الشتاء، وأخى الأصغر يؤدى الخدمة العسكرية عند حدود الوطن من جهة الشمال الشرقى، ويوم أن قامت الحرب بيننا وبين الأعداء شاهدنا طائرات العدو تحلق فى سماء بلادنا، ساد الذعر والهلع وتبادلنا الأخبار المتضاربة حول نتائج الحرب واحتمالات السلام، ثم رأيت النعش الملفوف بعلم البلاد وكان النسر مقلوبا، وسمعت العويل المكتوم بين شواهد القبور، كان أخى الأصغر أول من عثروا على جسده المقتول بينما يتوجه بخطواته المذعورة ونظراته المفزوعة ناحية مدينتنا التى دمرتها مدافع دبابات العدوان، توافدت النعوش الملفوفة براية الوطن زمنا ثم انقطعت رغم إصرار الناس على انتظارها لتحمل إليهم أبدان الذين غابت أخبارهم وغابوا، فقد الناس كل حلم فى عودة

الشباب الغائب وغزانى حلم الأرنب الكبير، لكن أمى لم تكن هناك لتحرسنى أو تحمينى، تجاسر الحلم وعاودنى، تكرر بشكل متواصل حتى صرت أعرف كل شىء عن الأرنب المذعور الذى يدعى الشجاعة والجسارة ويطاردنى كل ليلة، ومن كثرة ما رأيته رسمته فى كل حالاته، صرت رسام الأرانب بعد أن كنت رسام الوحوش الضارية والأشجار العملاقة ذات الجذوع الصلبة، صرت لا أرسم غير الأرانب، حتى عندما كنت أرسم الأشياء كانت تبدو مثل الأرانب، وعندما جاء الرجل الطيب يطلب شقيقتى الكبرى للزواج كنت أراه مثل الأرنب المستأنس الوديع الساكن وهو يجلس إلى جوارها ليلة الزفاف، وعندما سافر أخى الأصغر إلى بلاد الشمال عاتبته برسالة وحيدة على طول غيابه فلم يكتب ردا، قلت لنفسى «لابد أن الرسالة ضاعت فى فراغات المدن البعيدة»، وعندما انفتحت كل أبواب المطارات لراغبى السفر سافر أخى الأكبر إلى بلاد الصحارى الفسيحة ليستصلح أراضيها، ورغم اعتراض أمى واعتراضى، ترك الأرض وفر وهو

يهمس فى أذنى بينما يشير إلى مساحة من فراغ أرض الوطن :

– طبلت، هذه الأرض طبلت.

ترك لنا حيز الدار وأفواه أولاده زمنا ثم استدعاهم واستعادهم وطمأننا برسالة عن لم الشمل وراحة البال قبل أن تختفى عنا أخباره، وكنت أرسم الأرانب بشكل متواصل فى تلك الأيام وأعرضها على أمى فتبدى استحسانا وتدعوننى للاستمرار.

جاء أخى الأصغر من بلاد الشمال وقد خلعوا لسانه وزرعوا مكانه لسانا آخر يرطن بلغة غريبة مع امرأة غريبة لها طباع غريبة وملابس أغرب، لكنها كانت بحسب ما أفهمنا زوجته وأم عياله التى طلع بها من متاع الدنيا فى تلك البلاد التى استهلكت اصفى سنوات عمره، كانت زوجته أم أولاده لا تتفق مع أمى أو زوجتى فى أى شىء ، وكثيرا مما كانت تفتعل المشاجرات لأسباب واهية أو حتى بلا أسباب.. مشاجرات بلا مقدمات يتكهرب فيها كل شىء ويبوخ الكلام.. وعندما نفاتحه بعدها ، تهدأ

العاصفة أو يبدو لنا أنها هدأت يحدثنا عن قرب رحيله واستقلاله بحياته بعيدا عنا نهوِّن على أرواحنا الأمر وننتظر دون أن تبدو لنا علامات أو مقدمات التفكير فى الوفاء بالوعد، فكابدنا شقاء معاشرة خصوم لا نطمئن إليهم أو نرتاح بمعاشرتهم وعلى نحو متكرر لمجرد أن ملامحه كانت تتشابه فى بعض الأحيان مع ملامح أبى الراحل، وكانت أمى حزينة، حزينة وقليلة الحركة، كأنما أصابها شلل أطفال متأخر، كنت أساعدها قدر استطاعتى فى بعض الأحيان لكنها أدركت العناء الذى كنت أكابده وأنا أحاول فى كل مرة أن أحملها وقد ترهلت من كثرة العقود إلى حد مخيف، أوشكت أن تتحول إلى كائن كروى طوله مثل عرضه، لعلها هى التى أوحت لى بالقعود مثلها عند باب حجرتها، ذلك أنه حدث أن وجدتنى أقضى معظم أوقاتى عند بابها أتسمع أنفاسها المتتابعة وهى تلهث بشكل دائم وأستجيب لنداءاتها إذا طلبت جرعة ماء فى منتصف الليل، أوفى دينها بالرغبة فى العطاء المتواصل مهما كبّدنى ذلك من إحساس بالشقاء

وأنا أحاول تعويضها عن جحود بقية أبنائها ممن فروا فى كل اتجاه، وكنت أسأل نفسى إن كان يحق لهم الاعتماد على وجودى فى المكان بديلا عنهم ودون تفويض مكتوب أو منطوق لتحمُّل الأعباء وحدى، مشغولا عن كل ما يحيطنى برسم الأرانب، كل أنواع الأرانب، الجبلى والبرى والمستأنس، أرسمها فى كل حالاتها، فى أعقاب ولادتها وهى مجرد كتل لحم أحمر فى حجم عقلات الأصابع الصغيرة التى تتحرك وسط خصلات قصيرة من شعر بطون الأرانب الأمهات، تلك النتف المنزوعة بأسنان الأرنب الأم نفسها قبل أن تلد، أرسمها وهى عمياء تسعى إلى أثداء الأمهات بالغريزة تتحسس بالأفواه الدقيقة حلمات الأثداء حتى تعثر عليها وتتغذى، أو أرسمها وقد كبرت وتحركت، أو أرسم ذكورها وهى تتعارك بفظاظة وغلظة إلى حد التوحش فى حالة النصر على الأرنب المهزوم، كنت أشهد الذكر المنتصر وهو يمزق بأسنانه مواطن الذكورة فى الذكر المهزوم، يدمرها تماما دون رحمة أو تردد وكنت أندهش من قسوة الأرانب التى هى

بحساباتنا السابقة وعديدة بينما هى فى خصومات الذكور منها أشرس من كل ما كان يطوف بالخيال من صور التوحش، لكننى كنت أرسمها دون تزويق أو تخفيف مفتعل لحدة الصراع الدائر بدعوى تنعيم الصورة الخشنة حتى لا تتململ العيون التى تشاهد الصورة من شراسة التفاصيل، كنت قد وضعت أدوات الرسم عند باب حجرة أمى ووضعت لنفسى مقعدا أجلس عليه، وعندما اكتشفت أن المقعد لا يريحنى بالقدر اللائق وأن عظام مؤخرتى وآخر فقرات عمودى الفقرى تتوجع من كثرة القعود دبرت لنفسى فى نفس المكان فرشا صغيرا يمكن أن يتحول إلى مقعد أو سرير بحسب الحاجة، على هذا النحو إذن؛ أرحت نفسى إلى حد يساعدنى على الاحتمال، لكننى لم أكن أعرف أننى سوف أستمرئ الراحة وأعتادها.

* * *

قال أخى الراجع من بلاد الشمال بلسان أهل الشمال:

- أنت تحرس جثة متهالكة.

كـان فى واقـع الأمـر يـحـرضنى على الفـرار بنفـسى ويدعونى للتخلى عن دورى كحارس أمين ووحيد بعد فرار الكل من المساهمة أو المساعدة فى القيام بدور الابن لأم حاضرة وغائبة فى ذات الوقت، أم تبدو للرائى ميتة دون دفن بينما تتنفس بعسر العسر وربما بقوة الدفع الذاتى أو ما تبقى منها، لكننى اعترضت لأسباب صدقتها وبحت له فى ساعة صفاء ببعض تفاصيلها لكنه وصفها بالبلادة وبأنها محض أوهام حمقاء وحالة من حالات التمسح فى أكـاذيب تتسـمى بأسـمـاء براقـة مـثل الوفـاء أو الولاء أو الإخلاص أو مـا شـابه ذلك من مـسـميـات ترد على ألسنة أمثـالى من القـاعدين المقـعدين أو العجـزة غير المؤهلين لتخطى الحدود الفـاصلة بين الفـعل واللافعل، كنت أنظر إليه وأراه أرنبا ذكرا يتميز بالشراسـة الخالصة وشدة العناد وكنت أرى أنيابه المسنونة وأتخوف أن يحتال على ذكورتى فى غفلة منى ناسيا كل ما كان بيننا فى السابق من مـودة واتفـاق، من شـدة خوفى منه سـايرتـه وتظاهرت بموافـقـتـه فى كل أفكاره ووعدته بتنفـيـذها على مـراحل

متقاربة لن تزيد عن بضعة أيام، وبلطف ودعته عندما هم بالقيام متوجها إلى باب البيت الموارب، ودعته وسارعت بأغلاق الباب بالترباس ولم يطمئن قلبى من ناحيته إلا بعد أن قمت بتركيب ترباسين آخرين فى خلفية نفس الباب جعلت أحدهما فى أعلاه والآخر فى أسفله، ولم أكتف بذلك بل أضفت مجموعة من العيون السحرية فى أماكن متفرقة من الباب المسكوك كإجراء وقائى يحمينى من كل الاحتمالات غير المحسوبة لو فكر فى العودة فى ظلمة المساء، وقلت لروحى بينى وبين روحى :

– لقد تغير كثيرا أو على الأرجح - وهو الأرجح - ربما يكون قد تبدل بشخص آخر لأنهم هناك فى تلك البلاد التى عاش فيها يقدرون على تبديل الأشخاص .

وقلت لروحى أيضا:

– ربما أكون بسبب تلك الظنون وذلك الشطط ظالما لأخى ابن أمى وأبى، وربما يكون هو مثل المرآة الصادقة القديمة التى ما كانت لتكذب أبدا، وربما كانت تلك الرائحة الكريهة التى تتسلل من تحت عقب الباب المسكوك

وأنكرها أو لا أرغب فى الاعتراف بوجودها دليلا على مصداقيته وغبائى فى ذات الوقت.

* * *

من كثرة الرقاد ارتسم جسدى على مرتبة الفراش غاصت مساحات وثبتت على حالها صورة لهيكل عظمى يتوارى تحت الغطاء، العجيب هو أننى كنت لا أشعر بالارتياح إلا لحظة اكتمال التمدد فى تلك الفراغات، وكنت فى الليل أحلم بأننى أراها قبالتى وأحادثها كما كنت أفعل فى السابق، بل إننى كنت فى المنام أشعر بالطمأنينة وأنا اتمثلها واقفة على بابى لتحرسنى وتحمينى من كل المخاطر وتزيح مخاوفى وتحارب بدلا منى كوابيس الليل، من جنونى كنت أطيل فترات الرقاد إلى حد تجاهل ما كنت استشعره من آلام المفاصل التى تكلست وتيبست من كثرة الرقاد والقعود ورغم تحذيرات طبيب المفاصل المسبقة من مخاطر الجمود.

كنت رغم كل شىء أرسم الأرانب، أرسمها وأنا قاعد أو محنى الهامة، أرسمها وأنا راقد على بطنى أو على

ظهرى، أرسمها وأنا أتمدد على أى من الجانبين، كنت أرسم كل أنواع الأرانب من الذاكرة وفى كل حالاتها، الغريب أننى كنت أشعر باكتمال صحو كل أطرافى رغم طول التمدد بتراخٍ مقصود يوحى بالموات، وكنت أتعذب من صحو ذاكرتى وكل خلايا مخى وهى تعارك ذلك السكون البادى وتصرخ:

- لابد من الشغل.

* * *

رأيته فى المنام يطاردنى مثل أى أرنب ذكر يطارد أرنبا ذكرا خفت على روحى فدافعت عن روحى، وفى المنام رأيت قطرات الدم تتقاطر من بين أنيابى، ولم أكن أعرف على وجه اليقين إن كان الدم دمى أو دمه، كانت مخالبى هى الأخرى تنزف الدم وكنت استشعر الوجع والحزن وأتباكى بدموع لأننى على رغم ارادتى دخلت حلقة الصراع الدموى دون ترتيب مسبق أو رغبة أو حتى إحساس بضرورة مثل هذه المعارك بين البشر، وعندما تقلبت فى فراشى وجدتنى أبكى بدموع حقيقية وألهث

بشكل متواصل مثل أرنب انتهى لتوه من معركة مصيرية وبينما أحرك نفسى لأقوم من رقدتى رأيت ظل الأرنب الكبير مرسوما على الجدار المقابل خفت أن أعاود النظر والتدقيق للتأكد من وجود الظل على الجدار ، ذلك الظل الذى لابد أنه يخصنى أو يخص الأرنب الآخر، وبلهفة أسرعت بخطواتى ناحية المرآة القديمة التى كانت لا تكذب أبدا فرأيت على سطحها وجه الأرنب وبدن الأرنب وذيل الأرنب ورأيت الأذنين الطويلتين، ولابد أننى فقدت فى تلك اللحظات ما كان قد تبقى لى من قدرة على التمييز أو الاحتمال، وربما من كثرة الهلع كنت مدفوعا بكل عزمى برغبة الخلاص من المرآة التى كانت تبرع فى الكذب وتعكس على أجزائها التى تتكسر صورا متكررة لأنيابى ومخالبى وقد ارتسم عليها الفزع والإنكار، والأعجب أننى كنت أسمع صوت نفسى رغم حرصى على الصمت والكتمان وأنا أهدر وأهتف، أعلن للجدران ولقطع الزجاج المسحوق والمكسور قطعا متفاوتة الأحجام أننى إنسان قادر على النطق بمثل ما أنا قادر على الرسم

والدفـــاع عن رجـــولتى، بل أننى كنت أســـمع صـــوت ضـحكاتى وهى تجلل سـخرية من كل مـا أراه مـعكوسـا على سطوح المرايا الكاذبة من وجوه الأرانب.

الأهرام سبتمبر ٩٣

الوريثان وفضلة الميراث

سوف أبوح لك الآن ببعض ما جرى لى فى غيابك، ذلك أننى مهما حاولت فلن أستطيع أن أتذكر إلا أقل القليل، كانت ذاكرتى فى السابق تستطيع ، لكن الأيام توالت والأحداث توالت ونالت منها إلى حد التعجيز، بل أننى جربت غياب الذهن الكامل قبل أن استعيد بعض قدرتى على الوعى بما كان يدور حولى، هل أصف لك الآن تلك اللحظات الخاطفة التى سلمت فيها روحى لشبح الموت واستكنت سأما من مداومة الاستمرار ؟

كانت مجرد لحظات خاطفة لكنها ممدودة، غامت فى تلافيف الدماغ خلالها كل الذكريات والأمنيات والأحلام وباخت إرادة الحياة، ولابد أن كل ما كان يخصنى ككائن حى فى تلك اللحظات كان قد أوشك على الانتهاء، كنت قد تهاويت أمامهم وأنا أدرك أننى أتهاوى وأسقط فى البداية، متخبطاً فى حركاتى وزاعقاً بما هو أكثر من كل

كلمات الاستجارة والاستغاثة، ثم مكتوماً ومخروساً وعاجزا عن الحركة أو التنفس كأنما انحط على صدرى شىء أثقل وأقوى من كل الكوابيس التى كنت أحدثك فى السابق عنها، وكنت أستشعر على نحو مفاجئ تلك الرغبة الخبيثة فى عدم المقاومة أو حتى التفكير فيها أو الإحساس المباغت بالرضا بالخلاص من كل شىء، هى حالة تتداخل فيها إرادة التنازل عن الدنيا وناسها وعناء التنفس مع الاسترخاء التام والسكون، ولابد أن هذه هى استكانة الموت التى يتحدثون عنها والتى تصاحب نهاية النبض فى القلب وجمود الدم فى الشرايين، كانت على كل حال مجرد لحظات بحسابات الأحياء لكننى أحسستها ممدودة وقد تداخلت فيها أصوات لم تكن تشغلنى لأننى ببساطة كنت معزولاً عن الوعى بها أو إدراكها، ربما لأن أصوات الحياة كانت تحوطنى وأنا أسيرى فى سكة العدم المعتم والصمت السرمدى الذى بلا حس ولا خبر، ولابد أننى كنت هناك مستجيباً لنداء أقوى من الإرادة أو الرغبة أو حتى القدرة على التردد أو التعلق

بأى خيط يعيدنى إلى الحياة، بل إن فكرة التنازل عن الحياة أو الضجر منها لم تكن واردة، كنت أستجيب فقط مسلوب الأشواق والذاكرة والرغبة فى الحركة أو الأمل، هو الفناء بعينه ذلك الذى عانيته بنفسى أو بما كان قد تبقى منى من ذاكرة شاحبة وخاملة، لكنها برغم الشحوب والخمول والبلادة والكف عن الانشغال والاشتغال فاجأتنى بأنها كانت رغم العطب والتوقف تملك بصيصا خافتا؛ خافتا من الإدراك، كان صدرى مضغوطا ، وكنت أستشعر آخر انقباضة من ناحية القلب، ساكناً وبليداً ومستسلماً وخاملاً إلى حد يصعب توصيفه أو الوعى به، لكننى كنت على هذه الحالة عندما تبدى هو لى، سوف يكون من العسير أن أبرهن لك أو أطالبك بأن تصدق أننى رأيته واقفاً بعوده المفرود وجلبابه الصوفى الثقيل «بالقيطان» المزدوج والعباءة السوداء بشريطها العريض الأسود اللامع والطربوش المكوى والعصا الأبنوس التى بعناها فى واحدة من تلك الأزمات البلهاء المتكررة التى جعلتنا نبيع أغلى ما ورثناه بأبخس الأثمان، كان هو

هناك فى أول السكة على هذه الهيئة واقفاً وبيده الخالية المفرود كفها فى وضع قائم كأنها مصد تأمرنى بالرجوع، لابد أنه كــان يقف عند الخط الفــاصل بين الأمــوات والاحياء، كان هو هو نفسه أبى القديم الذى رأيته فى صباى أيام صبوته وفتوته وجسارة نظراته، كان يأمر فيطاع، ليس فقط لأنه قوى وقادر ومالك بل أيضا لأننا كنا نحبه ونخشاه ، نتبارى فى سبيل أن نحصل على رضاه أو أن نقلد خطه الجميل المقروء وننال المكافآت، وقفت فى مكانى لا أتخطاه بينما يستدير هو وأسمع صوت حذاءه «يزيق» بنفس الصوت الذى كنا نميزه ونعرف به خطواته فنفرح لأنه عاد، أو نسعى فى أعقابه لنقول له وداعاً ساعة الرحيل، يتباعد الصوت ويتباعد ذيل الجلباب دون أن أتجاسر على الرمح وراءه كما كنت أفعل عندما أطالبه بمصروفى إذا نساه، وكثيرا ما كان يتناساه لينعم بسماعنا ونحن نطلب منه ويمنحنا من حر ماله، ناديته بصوتى بحسب شهادة كل من كانوا حولى فى المكان وأنا واقف عند الخط الفاصل الذى طالبنى بألا

أتخطاه، وعندما اختفى تماما استشعرت أطرافى لمساتهم، وبين كل نداء ونداء كنت أسمع أصواتهم التى تعلن عودة الروح إلى البدن وسبحانه واهب الحياة.

* * *

كان حازم ينادينى بصوته المبحوح

– يا بابا ... يا بابا ... يا بابا.

أفيق لروحى وأرى دموعه فتدمع عيناى، لعلنى كنت اعتذر له عن لحظة الاستسلام، لعلنى كنت ألوم نفسى لأننى وافقت على الذهاب بعيدا عنه رغم إرادتى، كان يتعلق بى وأحتوى جسده النحيل، اطمئنه بعد أن انزرع فى قلبه الصغير خوفا لا يحتمله الكبار، هل أعطانى هذا الولد عمرى فى تلك اللحظات أم أننى أوهمت نفسى بذلك وأنا أقوم قادراً على حمله فوق صدرى وقد زالت عنى كل الكوابيس والمواجع وتفجرت فى البدن طاقة الحياة بكل عنفوانها وعنادها وقدرتها على الصمود؟

* * *

سبقتنى أنت فى الميلاد بعشر سنوات وأكثر، وكانت

تلك السنوات كفيلة لأن تعايشه فى صدر شبابك،، صحيح أنك حرمت من ميراثه بتدابير النساء التى كانت أمى فى مقدمتهن، وصحيح أننى صدقت أن ما حصلت عليه أنا زائد هو القسمة العادلة بحسب ما حسبوها ورددوها على مسامعى:

– مشوارك طويل فى التعليم والتربية، وما دبرناه دبرناه من أجل مستقبلك، أما هو فقد زال همه وصار قادرا على أن يدبر أمر نفسه.

وكنت أنت تدبر أمر نفسك بالفعل، هل أقول لك أننى كنت فى تلك الأيام أصدِّق دعواهم بأنك مسئول عن تربيتى ومساعدتى دون أن تفعل؟ كنت أشعر بحاجتى إليك لتعوضنى عن فقدانه لكنك لم تأت وأنا الصبى دائم الحديث عن الأخ الأكبر البعيد الذى سوف يأتى غداً، وكانت المرة الأولى التى جئت إلينا فيها تجربة حزينة، فها هو الأخ لأب يتطاول على أمى التى بحسب ما شهد الجميع قامت برعايته بعد موت أمه، كانت له الأم الصغيرة التى لم تبخل عليه بجهدها أو مال زوجها الذى

كان ينفقه ببذخ على تعليمه وتربيته، لكنه عندما جاء تناسى كل ما كان وطالب بحقوقه التى لم يحصل عليها، ناسياً أننى كنت مازلت صبيا فى أول الطريق وأحتاج إلى الرعاية والمساعدة، حتى عندما ذكّروه بوجودى فى المكان مط شفتيه وأزاحنى من سكته وهو يقوم محتجا، يومها كرهتك وكرهت اسمى الذى تشاركنى فيه اسم الأب والجد واللقب، ومن يومها رحت أنت ولم تعد، وما كنا قد ورثناه أبقيناه فى حوزتنا لأنك لا تستحقه، ورغم كراهيتى لك كنت أتمنى أن أراك، ارتمى فى حضنك وأسألك عن أشياء ، أبوح لك بعلامات استشعرها فى بدنى وتبدلات أخجل أن أتحدث بشأنها مع أمى وخالتى وجدتى لأمى، لكنك نسيتنا وعشت فى الذاكرة اسما لا يتجسد أمامنا فى أى المناسبات أو نعرف له عنوانا أو سكنا لسنوات طوال.

* * *

كنت أجلس فى واجهة المقهى المطل على بوابة محطة السكة الحديد، ألعب النرد منهمكا مع ابن خالتى، ولابد

أنك عرفتنى وجئت، جلست إلى جوارى فى صمت كأى غريب يتفرج على اللعب، وعندما أخطأت أنا فى واحدة من اللعبات مددت يدك ونبهتنى إلى الخطأ :

- لأ... لا تكشف نفسك على هذا النحو.

نظرت إليك وقد أدهشتنى المفاجأة، أخرستنى، كان من اللائق ساعتها أن أقوم وأرتمى فى حضنك ، أن أكف عن اللعب تماما وأن أهنئك على سلامة الوصول، لكننى لم أفعل، ولابد أن وجود ابن خالتى قيدنى ودفعنى لأن أتصرف معك بكل هذا الفتور وبرود الأعصاب وكأنك بالفعل غريب إلى حد أننى أزحت يدك عن قطع النرد ووضعتها مرة أخرى فى مكانها الخاطئ بحساباتك وحساباتى أيضا فى تلك اللحظات، كأننى كنت أعاندك وأعاند نفسى فى ذات الوقت، ولابد أن ابن خالتى أرضاه ما فعلت لأنه ضمن الدور وتأكد من عداوتى لك، توجه إليك وقال عبارته الوحيدة وكأنه يطردك من المكان:

- لو سمحت.

وسمحت أنت فقمت وتركت المكان متوجها إلى بوابة

محطة السكة الحديد التى لابد أنك كنت قد خرجت منها منذ دقائق معدودة، هل كانت فى نظرتك الأخيرة ملامة وعتاب أخفيتهما بالصمت؟ كنت من داخلى أشعر بالندم والرغبة فى الرمح وراءك لأوقفك وأستعيدك واعتذر لك لكننى لم أفعل، كان ابن خالتى يجلس قبالتى مثل سجان مدرب على مصادرة الرغبات ، ولابد أننى فى ذلك المساء أعجبت أمى وخالتى وجدتى لأمى لأننى أوقفتك عند حدك مثلما قالوا، لكننى من داخلى لم أكن راضيا عن نفسى لأسباب لم أدركها فى ذلك الزمان البعيد.

* * *

لا أخدع نفسى أو أجاملك إذا قلت لك أنك قمت برغم كل شىء بكل الواجبات تجاهى، كنت تحضر لتواسينى فى كل مناسبة تستحق المواساة، كنت تطلع لى من تحت الأرض لا أدرى كيف، تشد على يدى وتأخذنى فى حضنك وتذكرنى بأن الموت على رقاب العباد وأنه لكل أجل كتاب، تطالبنى بأن أصمد وأحتمل وتعرض على كل ألوان المساعدة، فعلتها يوم ماتت خالتى ويوم ماتت أمى

ثم يوم مـاتت جدتى لأمـى، ولابد أن أعتـرف لك الآن أننى كنت أتماسك بمسـاعدتك وأتخطى مثل هذه الأزمـات، ولم يكن الموت وحـده هو الذى يجـعلك تـأتى، كـانت الأفـراح تناديك أيضـا، فـعلتـهـا يوم زواجى وزواج أولاد خـالتى، وفـعلتــهـا يوم أن أنجـبت أول أولادى وثانيــهم وثالثــهم ورابعــهم وخـامـســهم، كنت تقـوم بالواجب وترضـينى، تشاركنى فرحتى وتختار لى فى بعض المناسبات أفضل الهدايا، ومن خيبتى وسوء فهمى لم أفعل معك ما يليق فى عـشـرات المناسـبـات، ولابد أنك برغم العـسـر فى حـيـاتك والرواج فى رزقى والميراث الذى أخذته وحدى دونك، برغم كل ذلك أقول أنك كنت أغنى منى، علي الأقل كانت نفسك أغنى وروحك أكـبــر وعطاؤك أوفـر، وربما تأكـدت فى عـشـرات المرات أنك تعـانى من أزمـة طارئة ولم أتحـرك ناحيتك بالسرعة اللائقة، كنت لأسـبـاب خفـيـة أتكاسل وأتباطأ وإذا وصلت متـأخرا عرضت عليك المساعدة بعد فـوات الأوان، وكنت تشكرنى رافـضـا وأنت تربت على كتفى فى استـخفاف وسـخرية أو كبرياء وثقة فى قدرتك

على التخطى دون مساعدة، هل أقول لك الآن أننى وددت لو أراك منكسرا وعاجزا تستجير بى ولو مرة واحدة فى كل عمرك؟ أستطيع الآن أن أبوح وأن أفسر لك دوافعى، لقد كنت أنت الأكبر، كنت تبدو لى فى بعض الحالات شبيها بأبى رغم الفوارق فى الطباع والثياب ونبرات الصوت وبعض الملامح، ولأنه أعطانى وأعطانى قبل أن أتمكن من مبادلته عطاءً بعطاء فقد تعلمت طوال عمرى أن آخذ وآخذ وآخذ ولا أمنح إلا فى أضيق الحدود، لا يحق لك أن تسميه بخلا فأنا لست بخيلا بكل الحسابات مع الغرباء، على العكس من ذلك تماما فأنا محسوب ضمن المسرفين، وهو إسراف بنظام وفى اتجاهات محددة أنت أبعد الأطراف عنها، هل كنت آخذ منك حقى فى الأب الذى رحل وتركنى فى بدايات الصبا وسط بيت تحكمه وتتحكم فى كل أموره تلك السيدات الثلاث، يرتبن كل شىء ويفسرن كل شىء بحسب عقولهن، هل كنت فى كل هذه السنوات التى خضعت فيها لتعليماتهن ووصاياهن وتربيتهن، أرفضهن وأرغب فى إعلان رفضى لهن ولو

مـرة؟ هل كـان الأمـر كـذلك أم أنهـا أوهـامـى ؟ لابد أنهـا أوهامى لأننى سـايرتهن دون ضـغـوط فنلت الرضـا والدعاء بالستر والرزق الوفير وقد تحقق ذلك ببركات الدعوات إلى حين.

* * *

– دبرنى يا وزير .

– التدابير لله يا ملك .

وكـان الملك فـى الحكاية القـديمـة عـبـئـا على الوزير، يستفتيه فيفتيه، يستحلله فى أموال اليتامى والمساكين فيحلِّها بلا كفارة، يلمح له بالرغبات الفاسدة فيحققها له دون تراخ أو إبطاء، وكنت أنا فى البـيت ملكاً بلا تاج لكننى أملك بدل الوزير ثلاث وزيرات جاهزات لتحقيق كل رغبـاتى ، وبدا لى فى صـدر شـبـابى أننى امتلكت الكون وصرت بؤرته حتى جئت أنت فاهتزت قناعاتى، كنت مثله فى الجسارة والقدرة على تسمية الأشياء بأسمائها، كنت تبدو فى رأيهن جارحا وخشنا إلى حد «الجلافة»، قلت لى وأنت ترانى قادماً بخجلى نحوك لأسلم عليك كما أمرونى

- ارفع رأسك يا ولد وسلم برجولة، مالك مثل البنات ناعم الكف والصوت كأنك منخث ؟

وتضاحك الكل لكنك لم تضحك ، ولابد أن الأرض تزلزلت من تحت أقدامى وأنت تتجه ناحيتى وتمد كفك الغليظ إلى رأسى لتبعثر خصلات شعرى المدهون «بالفازلين» والذى تعبوا فى تصفيفه وتثبيت «الفَرق» فى منتصف الرأس تماما، ولابد أن ما علق بكفك من آثار «الفازلين» ورائحته لم يعجبك فصرت تمسحه بمنديلك المحلاوى بكل العنفوان والقرف والشدة :

- وفارق شعرك «الأكرت» من الوسط وعاجنه «بالفازلين»؟

من يومها كرهت «الفازلين» وزيت الشعر ولم أعد أقسمه نصفين أبدا كما كنت أفعل بتشجيعهن وتبريراتهن واتهاماتهن لك بأنك تغار منى ومن جمالى والترف الذى يحوطنى بينما تشقى أنت فى البلاد البعيدة وقد غزا الشيب رأسك وأصابه الصلع .

* * *

مالك ساكت ؟

حدثونى عن قدراتك فى تفسير الأحلام ففسر لى منامى المتكرر، لا أحسبك تبخل على براحة البال المشغول بالحلم أو الرؤيا أو المنام أو الكابوس، أنت على كل حال أدرى منى بتسمية الأشياء، ميراثك من كلماته وأمثاله وحكاياته بلا حدود، وخبراتك التى أودعها فى وعيك تدعونى لأن ألجأ إليك كلما تداخلت الرؤى فى عقلى وتاهت التفسيرات.

رأيتنى فى المنام أو رأيتك محارباً يطارد فلول الأعداء ويخلص الأرض التى سكنوها غصباً واغتصابا من ظلالهم، وفى المنام كنت أنا أو كنت أنت ترتدى ثياب عساكر الفرعون الجديد رغم أنك تركت الخدمة العسكرية وأنهيت سنوات الاحتياط لكنهم استدعوك بإشارة فتركت الزوج والأولاد وحملت السلاح، وكان السلاح يتبدل فى يمينى أو يمينك من رمح إلى قوس أو فأس أو بلطة، ومن سيف إلى بندقية أو مدفع محمول على الكتف، كنت فى تلك الحالات متوحدا معك بالجسد وكنت أشعر بجسارتك

وخـوفى، ولابد أنك كنت تشـدنى شـدا لأن أتخطى تلك الحواجز العالية والوعرة، وكنت أنا أسمع أكثر مما تسمع صليل السيـوف وصـغيـر السـهـام وأزيز طائرات الأعداء وهدير مدافعهم من حولى، لكننا وصلنا إلى خط الحدود الفـاصلة بين أرضنا وأرضـهم فـأعطيتنى أنت بيدك راية الوطن وأمـرتنى بأن أرفـعـهـا فـرفـعتـهـا وصـرت فـى نظر الشهداء والأبطال والفرسان فارساً يندر تكراره، وبعينيك كنت ترى فى الناحية الأخرى صليباً معقوفاً ونجوماً سداسية التكوين تنادى نجوم رايتنا المرفوعة خماسية التكوين، وكان الهلال يبدو فى الأفق وحيداً ويتيما لا يجد من يؤنسـه، وحلقت فى الأفق نسـور ومن بعدها صـقـور فاطمأن قلبى وخلعت خوذتى وركنت سلاحى، استشعرت طراوة النسيم واستشعرتها أنت، لكننى فوجئت بلون الدم الأحمر يملأ كفى ويتقاطر على الرمال، وقالوا أننى أصبت بشظيــة غــادرة أو أصــبت أنت بهــا وكنت تشك فـى مصدرها، نقلونى أو نقلوك فوق أسرع العجلات الحربية لإسعافك أو دفنك فى مقابر العائلة، وبدا لى فى المنام

أنهم دفنونى أو دفنوك حيا ودون محاولات للإسعاف لأن التابوت كان مفروشاً بذهب ومال قابل للاستلاب، وسرحت روحك فى شوارع المدينة تبحث عن أصغر عيالى تسر له بما كان، وتدعوه لأن يخرجنى من المقبرة فيجرى ناحية المدافن ينادينى ويناديك وأنت الصاحى الذى يسرح فى كل جنبات المكان وأنا المدفون، وبعينيك كنت تراه جالساً أمام باب المقبرة، وبأصابعه الصغيرة كان «حازم» ينبش الطين اليابس المخلوط بنخالة التبن والذى يحيط بابها ويسد الفتحات بينه وبين بدن المقبرة، ولولا أنهم وصلوا إليه وحملوه لأفلح فى فتح بابها وإخراجى أو إخراجك، كان ينادينى ويناديك ويصرخ، أسمعه وتراه وهو يرفس بقدميه ويضرب بكفيه صدر خاله الذى لا يحبنى ولا أحبه، ومن جديد أحاطوا باب المدفن بطين يابس جديد مخلوط بنخالة التبن، وكنت أنت تراه وقد انكمش على نفسه واستكان قبل أن يغافلهم ويأتى ليحاول من جديد أن يزيح الطين اليابس ويفتح الباب، وكانوا يصلون إليه فى اللحظات الأخيرة، يعاقبونه بالضرب

والتوبيخ ويعاندهم بأنه سوف يعود ويفتح الباب للمدفون حيا، فتفرح أنت وتدعونى لأن أفرح لأننا أنجبنا ذلك الولد الجسور، تذكرنى بنشأتى دون أب وأنا فى مثل عمره، أذكرك بأنه ابنى أنا، ذلك الذى يملك القدرة على فتح الباب المسكوك، وأنه لا يحق لك أن تشاركنى فيه.

مالك ساكت ؟

فسر لى حلمى أو رؤيتى أو منامى أو كابوس عمرى، فسرنى لأنك رغم الأكاذيب التى أحاطتنى تستطيع أن تهبنى بعض الوعى والفهم وقليلا من خلاصة الحكمة.

* * *

الأهرام أبريل ٩٤

والبنت كانت بنت موت

- مات الملك .. عاش الملك.

سمعتها لأول مرة وأنا بصحبة أبى فى البندر، كان أبى يمسك بيدى وهو يتجه إلى محطة القطار، كان هناك على رصيف المحطة زحام من الأفندية بالطرابيش والملابس الإفرنجية والمشايخ بالجبب والقفاطين والعمامات وأولاد البلد بالجلابيب والطواقى، وعندما سمعوا صوت القطار رجعوا إلى الوراء خطوات متباعدين عن الرصيف، كانت صفارة القطار عالية الصوت وكان الدخان الكثيف الأسود يخرج من المدخنة الكبيرة على سطح «الونش»، عندما توقف القطار نزل على الرصيف أفندية بطرابيش ومشايخ بجبب وقفاطين وعمامات؛ فازدحم الرصيف أكثر وتراجعنا إلى الوراء أكثر قبل أن نسمع الهتاف.

- مات الملك.. عاش الملك.

وردد كل من كانوا على أرضية الرصيف المزدحم وبعض من كانوا يطلون من النوافذ الهتاف نفسه، بعدها تجمعوا حول الأفندى النحيل لابس البدلة الرمادية والطربوش وقد اعتلى دكة خشبية وصار يحدثهم بكلام لم أحفظه وإن كنت حفظت الهتافات التى قالها عدة مرات وكل الناس ترد عليه وأبى يرد عليه معهم بحماس، وأنا من فرط قصرى لم أعد أرى وجه ذلك الأفندى بالطربوش:

- مات الملك .. عاش الملك.

وعندما عدنا إلى الكفر أفلتُّ يدى من يده وصرت أجرى فى شوارع الكفر وأهتف بنفس الهتاف والعيال تتبعنى وتردد الهتاف أهتف والعيال تتزايد من حولى ويرددون الكلام ورائى وتتزايد أعدادهم أكثر، لابد أننا اكتشفنا فى ذلك النهار لعبة جديدة اسمها «مات الملك عاش الملك» حتى بعد العشاء عدنا وتجمعنا ولعبناها وكان يحق لى أن أقودهم فى ذلك النهار والمساء لأننى كنت أول من اكتشف اللعبة ونقلها من البندر إلى عيال كفرنا الصغار والكبار على حد سواء، لكننى وأنا راجع سألت

نفسى كيف استطاع الملك أن يموت ثم يعيش فى نفس الوقت، وتذكرت أن الملوك غير الناس العاديين أمثالنا، الملوك فى كلام كل عيال الكفر الأكبر منا يستطيعون عمل أى شىء، وفى مراهناتهم بعضهم لبعض كان الولد الكبير يقول للولد الأصغر منه مثلا :

– ابن الملك يقدر يطلع النخلة العالية، ويقدر ينط من فوق السطوح ع الأرض ما يتعورش.. تقدر انت ؟

– ابن الملك يقدر يعدى البحر وأيديه ورجليه مربوطين فى بعض، ويقدر يسبق القطر وهو بيجرى.. تقدر انت ؟

وكم من مراهنات مستحيلة اخترعوها واخترعناها معهم لتأكيد قدرات الملك وابن الملك التى شافها ناس كبار أب أو عم أو خال أو أخ أكبر شاف بعينيه وأقسم على المصحف أن ابن الملك فعل كذا أو كذا دون أن يعترض على الكلام أو الفعل أحد طالما هو منسوب إلى الملك أو ابن الملك، لكننى كنت أتعجب لقدرة ابن الملك على الحياة بعد الموت خلافا لكل الناس الذين سمعت عن موتهم الذى يكون بلا رجعة كما يؤكد كل الناس الكبار فى كفرنا،

فكرت أن أسأل أبى لكننى نسيت بمثل ما نسينا فى الكفر لعبة مات الملك عاش الملك بعد عدة أيام.

لكن سيرة الملك نفسه انفتحت فى دارنا من خلال الشيخ عبد الصبور الذى كان قريبا لأبى من بعيد وكان له شقيق أصغر شفناه فى «شرخة» من الأرض مجاورة لأرضنا من الناحية الشرقية لكنه اختفى وعرفنا من الشيخ عبد الصبور أنه دخل الجيش لتأدية الخدمة العسكرية لعجزهم بالقطع عن دفع «البَدل» بحسب ما كان الشيخ عبد الصبور يتكلم عنه متأسيا فى أول الأمر، لكن نبرة الرجل عن أخيه تبدلت وتغيرت وصار يكثر من زيارتنا، ويطول الوقت الذى يقضيه عندنا وليس له كلام إلا عن أخيه عبد النصير الذى اختاروه وحده من كل المجندين فى مديريتنا ليكون ضمن حرس جلالة الملك فاروق، كنت أرى صورة الملك المنشورة فى الصحف التى كان أبى يشتريها أحيانا، أراه شابا جميل الملامح بالطربوش، وأتخيله قادرا على عمل كل المعجزات التى يتراهن عليها العيال الكبار والصغار فى كفرنا ولابد أن

كـلام أبى عن الملك الطيب توافق مع كـلام الشـيخ عـبـد الصبور الذى كان ينقل لنا أفعاله وأقواله كما ينقلها له أخوه عبد النصير وهو من ضمن الحرس الملكى، يصف لنا مـلابس التشريفة التى يلبسها وهو راكب الحصان بالكسوة أمام موكب جلالة الملك، وكيف يرافقه فى كل تحركاته وينعم أحيانا بعطف جلالته على عساكر حرسه الذى يأمر لهم أحيانا بوجبات من اللحم الخالص الذى يأكل منه، ويصرف لهم هبات مالية تساعدهم، ويسمح لهم بركوب القطارات بالمجان، وكان كل ما يتمناه الشيخ عبد الصبور أن يجددوا له مدة الخدمة فى الحرس الملكى فاقترح عليه أبى أن يكتب له طلب تجديد بنفسه ففرح الرجل ودعا لأبى بزيادة الرزق والستر فى الدنيا والآخرة، كتب أبى فى نفس اليوم طلب التجديد بخطه وسلمه للشيخ عبد الصبور ليسلمه إلى أخيه عبد النصير فى أول اجازة ينزل فيها الكفر، كأنما كان يريد أن يريح نفسه من هوس الرجل بكتابة هذا الطلب الذى لابد أنه كان يتمناه، لكن زيارات الرجل تواصلت ولم يكف عن المجىء

بحسب ما كان يحسب أبى، ولم يكف عن الحديث عن جلالة الملك وحرس جلالة الملك، يستفسر من أبى عن رأيه فى مستقبل عبد النصير إذا قبلوا طلب تجديد خدمته فى الحرس الملكى فيطمئنه أبى، يتنهد ويهز رأسه ثم يقول وكأنما يحادث نفسه :

– دا لو جددوا له ح تنفتح له طاقة القدر، ح يعيش فى خير ما حدش يحلم به ف الكفر كله والناحية كلها، ومش بعيد كمان يحوش أرض ويصير من الأعيان.

– ربنا يسهل وينولكم المراد.

يقولها أبى ويحاول أن يغير الموضوع، لكن الرجل يعيد ويكرر ما سبق أن قاله ورردده وحفظناه، ومرة همس بصوت خافت فى أذن أبى لكننى سمعته :

– ما تدينا زينب بنتك لأخويا عبد النصير.

– زينب ح تكمِّل علامها، يا شيخ عبد الصبور، دى لسه عيلة، ولما تكبر تبقى تاخد اللى يليق لها ويكون صاحب النصيب، ماتزعلش منى إن قلت لك ماتفتحش السيرة دى تانى... زينب؟! لأ لأ.

كانت حسابات أبى أن الرجل سوف يكف عن المجىء أو على الأقل يخفف من زياراته لنا لكنه لم يفعل، ظل يأتى ويتحدث عن عبد النصير وحرس جلالة الملك الذى تزيد فيه قيمة الشريط على قيمة الدبورة على كتف الضابط فى أى سلاح، من كثرة حكايات الشيخ عبد الصبور عن أخيه بدأ أبى يتهرب منه ويأمرنا بإنكار وجوده لو سأل عنه، وهو الذى لم يفعل مثل هذا الأمر أبدا مع غيره من ناس كفرنا؛ رغم القرابة المؤكدة التى تربط بينهما.

وذات مساء جاء الشيخ عبد الصبور ووقف أمام باب دارنا المفتوح ونادى باسم أبى، وقبل أن تفكر أمى فى إنكار وجوده فاجأها وهو يتقدم ناحية العتبة قائلا :

– أنا عارف إنه لسه واصل دى الوقت وداخل من باب الدار، أصل أنا شفته من فوق سطوح الجماعة، عقبال عيالك عايز أبشره بالخير اللى جايله والسعد اللى ح ينكتب له .

– اتفضل.

ودخل إلى القاعة ورحب به أبى على مضض وانتظر ليسمع البشرى التى وعد بها فلخص الشيخ عبد الصبور الأمر فى قبول طلب التجديد الذى تقدم به عبد النصير للبقاء فى خدمة الحرس الملكى، وكيف أن أبى بخطه الذى هو مثل سلاسل الذهب يفتح الأبواب المسكوكة، ذلك أن جلالة الملك قرأ الطلب بنفسه وعبر عن إعجابه بالخط وفصاحة كاتب الخط الذى هو أبى، بل إن جلالة الملك طلب الأومباشى عبد النصير وسأله إن كان هو الذى كتب الطلب فلم يكذب أو ينسب لنفسه خطأ لا يخصه، قال الحقيقة فى حضرة جلالة الملك والناس الأكابر الذين كانوا فى مجلسه، بل إن عبد النصير ذكر اسم كفرنا فانبسط الملك والناس الأكابر وضحكوا جميعا ثم قالوا له قبلنا طلبك يا عبد النصير.

– مبروك اللى شرف كفرنا وناسه.

– بكره الخلق ترمح وراه ماحدش يحصله.

ولم يعلق أبى على كلامه متحاملاً على نفسه حتى لا يفسد على الرجل فرحته، لكن الرجل لم يكف عن التباهى

بما حدث، شرب أكثر من مشروب بعد أن شاركنا وجبة الغداء ثم اعتدل فى جلسته وهمس بجدية ظاهرة :

– خدمة قصادها خدمة، تنزل مصر وتروح على ميدان عابدين، تسأل على عبد النصير أخويا ألف مين ح يدلك عليه، ح ياخدك للظابط رئيسه فى الحرس الملكى، ح يدخلك على طول ويفكر جلالة الملك باسمك وبلدك وخطك، ح تتعين خطاط فى الديوان الملكى، شوف انت بقى خطاط فى الديوان الملكى تساوى إيه؟ مش بقولك ح ينكتب لك السعد؟ ونبقى بالمرة نخلص موضوع كتب كتاب البنت على أخويا عبد النصير.

ساد صمت شعرت فيه بالزهو لأن أبى سوف يكون خطاطا فى الديوان الملكى وأنه لابد سوف يرى الملك جالسا على عرشه وربما يجعلنى أراه، لكننى أفقت من خيالاتى وأنا أسمع صوت أبى الغاضب.

– بقى إنت جاى وعينيك مفتوحة كده وعايز البنت كمان لاخوك؟ هو أنا مش سبق وقلت لك زينب بنتى ماتليقش مع أخوك؟ مش قلت لك؟

– هو إنت ح تفضل مستقل بعبد النصير لإمتى، ده رايح يتوسط لأجل تشتغل شغلانه ماكنتش تحلم بيها، ما تلين دماغك لأجل مصلحة نفسك.

– الله الغنى يا أخى.. مش عايز أتوظف ف الديوان الملكى اللى أخوك ورثه عن المرحوم أبوك، قاعد مستنى إيه يا عبد الصبور أجيب لك عرقسوس تبل ريقك ؟

لم يكن فى دارنا عـــرقـــســـوس، وربما لم يدخل العرقسوس دارنا فى حياة أبى الذى لم يكن يحبه أبدا رغم انتشاره فى معظم دور الناس فى كفرنا خصوصا فى شهر رمضان، كدت أذكر أبى بتلك الحقيقة مخافة أن يوافق الشيخ عبد الصبور كعادته كلما اقترح عليه أبى مشروبا أو طعاما، لكن الرجل نظر إلى وجه أبى الغاضب وقام نصف قومة ثم أكملها على مهل متوكئا على عصاه، ربما يكون قد غمغم بكلام غير مفهوم لأنه كان نصف منطوق ونصف مسموع، وخرج الشيخ عبد الصبور من دارنا نصف مطرود فى تلك الليلة الشـــتـــوية وربما لم يدخلها بعد ذلك أبدا ولم أكن أيامها أعرف الأسباب

وربما فسرت الأمر بعلاقة كانت بين الرجل وشراب العرقسوس أو أنه هناك حادثة حدثت له على مسمع ومرأى من أبى ومن عاصروه فيها عرقسوس، لكنه على أى الحالات تباعد عنا ولم نعد نراه أمام الدار أو حتى فى شارعنا إلا نادرا، لكن سيرته كانت تتفتح فى مناسبات عديدة عندما يتحدثون عن أخيه عبد النصير الذى شاع فى الكفر أنه صار من الواصلين الذين يتوسطون لحل المشاكل العويصة فى كل الناحية وذلك بسبب أنه كان يحرس الملك نفسه ويراه ويتقبل عطاياه ويشترى الأرض التى ما كان يحلم بامتلاكها أبدا ولا حسب نفر من ناس الكفر أنه سوف يطأها بقدمه، حلاق الحمير أبو يوسف نفسه كان يقول عنه هذا الكلام رغم القرابة الشديدة بينهما، لكن الرجل عندما كان يأتى كان يطيب له أن يفتح السيرة :

ـ وهو إن على ولا وطى مش حتة عسكرى ولا حتى شاويش، إيش جاب لجاب، دا المرحوم أبوك دفع لكم «البَدلية» نهار ما كانت العشرين جنيه تشترى فدان طين،

دفع لكم لأجل ماحدش منكم يلبس الميرى، يقوم المخفى ده يقولك روح لأخويا عبد النصير ونادى عليه، فى ميدان عابدين لجل يتوسط لك تشتغل فى السراية خطاط ؟ لأ ماكانش له حق أبدا يتجرأ ويقول كلام زى ده لواحد محترم زى حضرتك.

– ولابد أن كلام أبو يوسف كان يدوس على جرح أبى الذى كان يشتكى من أن علاوة دورية راحت عليه، أو أن ترقية كان يستحقها لم يحصل عليها، وحصل عليها من كان أقل منه، صار يتحدث باعتباره من مظاليم وزارة الصحة، لكنه أبدا لم يوافق على كتابة مظلمة يأخذها أى واحد باليد ويسلمها لعبد النصير ليقوم بتسليمها لجلالة الملك، وهو الذى كتب بخطه الذى يفتح السكك المسكوكة بعشرات المظالم التى كتبها لناس من الكفر ومن خارج حدود الكفر فأثمرت وأعادت الحقوق الضائعة ورفعت عن المظلومين الأذى، لكنه لم يوافق أن يكتب مظلمة ليعيد لنفسه حقه التائه فى ملفات المديرية الصحية فأدهش ناس الكفر كله.

كنت أشعر أنه رغم الضحكات حزين، كنا نكبر وتزيد مشكلاتنا فى الدار والمدارس، وكانت أمنياته القديمة فى عدل الملك الشاب الذى كبر تتناقص وتتضاءل ثم تنعدم، وكلما زادت مشاكلنا أو ضاعت من رتبه علاوة أو فاتته ترقية زاد غضبه على السراى والملك وحرس الملك، ورغم رفضه لبيع ميراثه من الأرض إلا أن أملاك عبد النصير وعبد الصبور التى كانت تجاور أرضنا من ناحية واحدة فى «شرخة» ضيقة وقصيرة من الناحية الشرقية امتدت واتسعت وصارت تحاصرنا من كل الجهات تقريبا، ربما لأنهم كانوا يدفعون بسخاء لمن يبيع لهم من جيراننا القدامى، ولابد أن الشيخ عبد الصبور كانت له أغراض يفهمها أبى ويتوجع منها وتخفى على أمثالى فى ذلك الزمن البعيد.

* * *

كنا من غير زينب فى عين العدو خمسة، كما اعتادت أمى أن تقول دائما وهى تفرد كفها اليمنى بطول الأصابع وتمدها واقفة بين وجهها ووجه من تتوقع منه مخاطر

الحسد، لم تكن تفرق بين الأقارب والغرباء، وربما كانت تفعلها أكثر مع أقرب الأقارب، جدتى التى هى أمها أو فرحانة أم يوسف أو خالتها الباتعة أم مرسى، أحيانا كانت تفعلها فى وجه أبى الذى كان يضحك وهو يسألها باستنكار عارفا مقدما جوابها، يسألها إن كان من الممكن فعلا أن يحسد الرجل أولاده فتجاوبه بأنه لا يحسد المال أو الطير إلا أصحابه ولا يحسد العيل إلا أهله وأحبابه، يسكت ويدعو لنا جميعا بالستر ويطلب من الله أن يحفظنا إكراما لخاطرها، وربما يكون قد قال لها مرة أو لم يقل لها: أنه لو حدث لا سمح الله وأصاب أى عيل من عيالها مكروه فإنها لن تحتمل، ستصاب بالجنون أو تطب ساكتة، لعلنى كنت أعيش حالة من حالات التوقع الصعب بسبب تكوينها وقلقها الذى لا ينتهى وكان أبى لا يملك غير طمأنتها وتهدئة مشاعرها المتوترة.

لكن زينب التى كانت خارج حدود قبضة اليد المفرودة فى وجوه الحاسدين أصابتها العين بين يوم وليلة فتحولت فى قلب أمى إلى جرح بلا دواء، وفى قلب أبى إلى وجع لا

يملك نسيانه أو دفعه أو حتى التقليل من فداحته، وقد بدا أن أمى بالفعل لن يواسيها كلام أو يرضيها عزاء، ربما لأن زينب نفسها كانت أبعد ما تكون بحسابات أمى على الأقل عن منطقة الخطر، كانت البنت بأدبها وخفة دمها وحيويتها بالإضافة إلى صحتها وجمال تقاطيعها تزرع فى قلوب الكل أملا وارتياحا مطمئنا، كأنما كانت خارج دوائر التوقعات الصعبة، لكنها كانت مثل مصباح شديد الإضاءة نفخت فيه نسمة عابرة فاهتز الشعاع ثم انطفأ، وكانت بالنسبة لى مثل خيال مسافر وعد بالرجوع لكنه لم يرجع أبدا، ولأن أمرها كان عسيرا على التفسير بالنسبة للكبار فقد كان خيانة من عزرائيل بكل ما تعنيه كلمة الخيانة من دلالات بحسب ما كنت أحس فى تلك المرحلة المبكرة من العمر بوعيها المحدود.

البنت رجعت من المدرسة وملأت أركان الدار صخبا، شاكست الكل وقبلت من الكل المشاكسات الودودة المتآلفة، ثم فجأة حطت كفها على جمجمتها وبدا أنها سوف تتأوه، لكنها لم تفعل، اهتزت فى مكانها نفسه وكل

عيوننا عليها نناديها فى صوت واحد مشترك، ربما تكون قد شعرت بدوخة أفقدتها التوازن وكادت أن تقع على الأرض، لكن أبى كان هناك فتلقفها على صدره وأحاطها بذراعيه، حملها مدهوشا وأرقدها على طرف السرير، طلبت أن تشرب جرعة ماء فقربت أمى حلق القلة من فمها، ظلت تشرب وتشرب حتى أفرغتها وأشارت تطلب المزيد

– عطشانة.

لكنه لا الماء الصافى ولا الماء بالسكر ولا العسل النحل المذاب فى عصير الليمون جعلها تشعر بالارتواء، وأسرع أبى إلى البندر راكبا جحشته السريعة ليستدعى الطبيب من المستشفى كما أشارت عليه أمى، ربما يكون الوقت قد طال وربما لم يمض وقت طويل قبل أن نسمع صوت سيارة الطبيب يهدر ثم يتوقف أمام الباب، كانت زينب قد راحت فى إغفاءة قصيرة من فرط الإرهاق، لكنه عندما فحصها الطبيب لم يجد فيها شيئا مخالفا للمألوف، استمع إلى وصف أمى باهتمام ظاهر لكن دون اقتناع

واستدار لأبى قائلا :

- البنت ماعندهاش حاجة.. يمكن دلع بنات.

لكن البنت تحركت وكذبته وهى تهمس لأمها:

- عطشانة.. أشرب.

كانت أمى تسقيها والماء الذى تشربه يتصبب من مسام جلدها عرقا غزيرا لا يكف عن معاودة الظهور وبكثرة رغم أن أمى كانت تجففه بالمناديل وفوط الأوجه والملاءات ولابد أن الطبيب احتار فى أمرها وأجهد ذاكرته لعله يكون قد قرأ فى كتب الطب التى درسها شيئا يشبه ما يراه وقد تحولت البنت إلى أرض «شراقى» فى عز «بؤونة»، ينصب الماء فى فمها المفتوح وبكثرة فينشع من مسام بدنها فلا الماء يكفيها أو يرويها ولا المسام تنسد، لعلها كانت تحتاج إلى سيل من مطر لا يتوقف أو مجرى نهر نرميها فيه فينطفئ اللهب الذى مما رأيناه ولا رآه الطبيب الجديد الذى نزل كفرنا لأول مرة لعله يؤدى خدمة لأبى ويعالج البنت، لكنه عندما أعيته الحيل اقترح أن يركب سيارته ويذهب إلى البندر يستدعى مدير المستشفى

أو أى طبيب آخر فلعل وعسى أو كما قال لنفسه :

– وربنا يستر .. ربنا يستر.

ربما كانت السيارة وقد تباعد صوتها قد وصلت إلى أول السكة الزراعية فى طريقها إلى البندر، عندما فتحت زينب فمها وأشارت الى القلة وهمست الحرفين لم تكملهما :

– أش ..

ثم سكن الرأس فى مكانه نفسه، تحركه أمى فلا يتحرك تهزها فيهتز بدنها باستسلام وقد فقدت قدرتها على الاحساس أو الحركة، كانت أمى تناديها ولا ترد، لكن قطرات العرق كانت تنز من جبهتها ولا تكف، حتى وهى على «دراية» الغسل كانت تغسل بدنها الطرى بعرقها والنسوة يكذبن عيونهن ويقسمن أنهن لم يشهدن فى كل أعمارهن واحدة مثل زينب.

– عروسة فى الليلة الحلوة، على وشها نور وجسمها بيلمع كما البدر، زينب من بنات الحور.

مثل هذا الكلام قالوه وقالوا أكثر وأكثر، ولعل فرحانة

أم يوسف كانت أكثر النسوة ملازمة لأمى تجالسها طوال النهار وتتركها فى أوقات الرقاد ثم تأتيها فى الصباح الباكر، توقظها إن كانت نائمة لتحكى لها المنام الذى شافت فيه زينب:

– شفتها النبى حارسها وصاينها لابسه أبيض فى أبيض، وكانت ضحكتها منورة وهى بتقولى روحى يا خالة فرحانة طمنى أمى وقولى لها إنى فى الجنة ونعيمها وأن ربنا اختارنى وسقانى من نهر الكوثر، سألتها نهر الكوثر ده فين يا زينب يا بنتى؟ ضحكت وطارت لبعيد زى ما تكون حمامة بيضا، عارفاشى نهر الكوثر ده يبقى ايه : آه.. أيوه.. تبقى فى الجنة صحيح.

تسكت أمى مدة ثم تنخرط فى البكاء وهى تهمس لفرحانة :

– يا بختك بتشوفيها يا أختى.. امال أنا مابشوفهاش ليه؟

ترد عليها جدتى إن كانت حاضرة:

– من عمايلك اللى بتعمليها فى روحك وروحها.

كانت فرحانة فى تلك الأيام رفيقة أمى، تأتنس بها وتبوح لها بحرقة قلبها على زينب، والأخرى تواسيها بالكلام المريح وتحلم لها كل ليلة حلم جديد شافت فيه زينب :

– وشفتها يا حبة عينى واقفة على كرم نخل وعيال صغار بتجمع لها بلح من كل شكل ولون، زغلول وسمانى وأمهات ورطب وابن عيشة، تمر وابريمى وسكوتى وبلدى وجنديله، يجمع لها العيال البلح ويحطوه فى حجرها، بصت لى وناولتنى حفان تمر مادقتش زى طعمه ولا اتحط على لسانى طول عمرى.. ده بلح الجنة ما فيش كلام.

– الغالية صحتنى من النوم وأنا نايمه فى المنام، قالت لى روحى لأمى خليها تطلع شوال البلح الابريمى المحطوط فى «الحضير» البحرى وتفرقيه ع اليتامى فى ليلة الخميس الكبير.

وتبدى أمى دهشتها لأنها خزنت البلح فى «الحضير» البحرى بالفعل وبحسب ما أقسمت لم يعرف سر بلحها غير المرحومة، يتأكد لها أن فرحانة صادقة فى كل

أحلامها، وأنها لا شك نطفة طاهرة ومظلومة فى معيشتها مع رجل لا يستحقها ، تآمرنا بأن نطلع ونفرغ البلح المخزون فى الشوال وأن نعطيه لفرحانة لتوزعه بمعرفتها على روح المرحومة، وأشياء أخرى شبيهة بهذه الأحلام وتلك الرسائل التى كانت فرحانة تنقلها من زينب الساكنة بجوار نهر الكوثر، وأمى التى كانت توشك على الجنون لولا هذه الحكايات والأحلام والوصايا التى كانت تنفذها دون تردد أو تفكير، حتى فى الأيام التى لا تفاتحها فرحانة أو تحكى لها حلما جديدا شافت فيه زينب كانت أمى تسألها إن كانت زينب غضبت عليها فتهبد صدرها بفزع :

– يا حومتى.. تغضب عليا إزاى؟ دا أنا خالتها.. مش بيقولوا الخالة والدة؟ انتى فكرك إنها غضبانة منك أبدا.. دى زعلانة عشانك،، وح تجيلك فى المنام قريب، دى هى اللى قايلالى بعضمة لسانها.. تعالى أما احكى لك على اللى شفته ليلة امبارح.

تستسلم أمى لها وتبدأ فى سماع تفاصيل المنام

الجديد، تبدو وقد استغرقت فى الحلم وعاشته لحظة بلحظة والأخرى تواسيها وتربت على كتفها بحنو وربما تتأثر أكثر وتشارك أمى البكاء.

لكن أصعب يوم وأصعب ليلة فى تلك الفترة الحزينة كان يوم الخميس الكبير وليلته، ربما لأن أمى انشغلت قبلها بالناس من الأهل والأقارب والجيران قريبهم والبعيد، يحادثونا ويواسونها، كانت الدار مزحومة بالرجال والنسوة والعيال، وكانت طواجن اللبن قبل ليلة الخميس تأتى محمولة على رؤوس البنات بلا عدد، ووسط الدار يمتلىء بالطيور الغريبة والأركان بعبوات التمر وثمار البرتقال، وليلة الخميس نفسها سهرت النسوة حول المواجير تعجن القرص والفطائر أو أمام الفرن تخبزها وتفردها على الحصائر لترد قبل أن ترصها فى السلال وبأعداد فردية دائما، خمسات أو سبعات أو تسعات، وطلع فجر الخميس قبل موعده كما قالت فرحانة أم يوسف وأيدتها جدتى.

وفى المدافن تولت فرحانة توزيع الفطائر والقرص

والتمر والبرتقال على الأطفال الصغار والمقرئين ومن احترفوا جمع رحمة الأموات من كفرنا ومن خارج زمامه، رجعت كل السلال، فارغة الى الدار ماعدا لقمة مكسورة من قرصة فى أحد السلال ربما لتبعد عن أهل الدار ما يمكن أن تأتى به الأيام الدوارة من أحزان بعد كل هذه الأحزان، وقبل عصر نفس اليوم جاء الى دارنا كل مشايخ الكفر من العميان والمفتحين من مقرئى الرواتب والفقهاء وحفظة القرآن الكريم، قسموا القرآن بينهم بأجزائه ثم بدءوا فى القراءة، كل واحد يقرأ فى جزء غير كل الأجزاء التى يقرؤها الآخرون وتتداخل أصواتهم ويصعب وسط الجلبة تمييز الغليظ من الرقيق أو المرتفع عن الخافت، هى الخاتمة كما كانوا يقولون، الذى يتم جزأه يسكت بينما يواصل الآخرون حتى أنهى الشيخ محمدين الضرير آخر آياته فطلبوا له أن يفتح الله عليه وان ينور بصيرته، وقبل أن يسيطر الصمت فى أركان المندرة الكبيرة جاءت الصوانى النحاسية وعليها المواعين المملوءة بالفت والأرز ومن فوقها قطع اللحم المسلوق الذى

تخاطفوه، رغم كثرته عميان ومفتحين وبأسنانهم نهشوه قبل أن يجربوا الرز أو الفت فواح الرائحة، تساند البعض منهم على الكفوف أو الكيعان متباعدين عن الصوانى ومسنودين على مساند الكنب ليشربوا الشاى الساخن الذى وصل إليهم برشفات لها صوت، بعدها دس أبى فى كفوفهم المفرودة فلوس الرحمة، فدسها البعض فورا فى الجيوب أو السيالات بينما أبقاها البعض فى القبضات المضمومة بينما يتساندون داعين لآل الدار بالفرج والستر وأن تكون هذه آخر الأحزان وهم فى طريقهم إلى مدخل الدار المؤدى إلى بابها الكبير، لكن الخاتمة التى كان من المنتظر أن تطرد الشياطين من الدار وأن تنزل على قلوب أهلها الصبر والسكينة انتهت نهاية غير محسوبة، ذلك أن أمى رأت وسط الخارجين من صحن الدار وجه الشيخ عباس الأعرج وهو يطلع فى خطواته متعجلا وكأنه يفر مما يمكن أن يواجهه إذا رأته هى، لكنها رأته بالفعل وسحبته من قفا جبته إلى الخلف فاختل توازنه وسقط بطوله مرميا على ظهره وعيناه تنظران إلى سقف الدار

بينما يتساند على الأيدى التى تساعده ليقوم نصف قومة، كانت هى قد خلعت فردة مداسها اليمنى ورفعتها إلى أعلى فى مشروع لضرب الرجل الذى لم يستقم عوده بعد أو يحسن استخدام عكازه، لكن أبى كان قد جاء إلى المكان ورفعها رفعا بينما تحرك مداسها فى اتجاه رأس الرجل فراحت تصرخ :

– نزلنى.. نزلنى.. خلينى أقطع البرطوشة القديمة على دماغه، مين دخل الأعرج أبو ديل نجس دارى؟ يدخلها فى يوم زى ده ازاى؟ وأنا أقول قلبى مولع نار ليه؟ أتاريه إبليس ومدفوس وسط الناس الغلابة دول.. نزلنى يا راجل قبل ما يهرب بعملته.

ولم يتركها أبى تنفذ أو ينزلها إلا بعد أن خرج الشيخ عباس الأعرج من باب الدار وربما يكون قد خرج من الشارع ووصل داره، أو دخلها وسك بابها عليه.

أيدت كل الحاضرات أمى فى فعلتها إلا فرحانة أم يوسف التى وجهت كلامها للستات دون أن تنظر ناحية أمى:

- حرام عليكم يا ناس.. اللى معاها كلمة طيبة تقولها.. دا غلبان ومنكسر وعاجز كمان، أنتو كده بتقطعوا عيشه ظلم.

- بس الخلق كلها شاهده على نجاسته وقلة حياه.

- خلق مين يا أم الشحات؟ انتو اللى بلدكم تولد البغلة، أهو تلقيح جتت والسلام..

- لأ بقى يا أم يوسف.. يوسف ابنك فين؟ .. أهه قول لامك يا يوسف شفت إيه فى الترب ليلة العيد أنت والشحات؟

حكى يوسف وحكى الشحات وحكيت أنا ما كنا قد رأيناه ثلاثتنا فى تلك الليلة المقمرة التى سرحنا فيها ثلاثتنا وسط الغيطان وتجاسرنا عنادا على الرجوع من سكة المدافن حتى لا يتهم أحدنا بأنه خاف من العفاريت التى تسكنها، سمعنا فى أول الأمر أصوات ونحنحات ثم رأيناه عند حوش مدفن «النعناعية» الجديد، كان هناك مقطع قماش حول نفسه، والشيخ عباس بارك على ركبته وقد تعرت مؤخرته ومن بين فخديه شفنا ساقين عاريتين

لامرأة لا تتحرك، فى أول الأمر، تهامسنا بأنه عفريت راكب عفريت لكن الولد يوسف قال أنه بنى آدم أو بنت آدم، تباعدنا عن المكان واختبأنا فى زريبة بنت الدبوس ننتظر وقلوبنا توشك على التوقف من شدة الخوف، وعندما مر الشيخ عباس الأعرج وقد لف مقطع القماش تحت إبطه تأكدنا أنه هو، كان يتنحنح ويتمخط ويكح ويحادث نفسه بصوت :

– الستر من عندك يا رب استرها يا كريم.

كتمنا السر فى قلوبنا حتى صباح العيد عندما أشاع الناس أن حوش مدفن النعناعية انفتح وأن سعيدة بنت الغباشى النعناعى انسرقت وفاتها اللص عريانة، قلت أنا لأمى، ولابد أن الشحات قال لأمه، لكن يوسف لم يبح بالسر إلا فى تلك الساعة، وقد كنا فى المكان معا، لابد أنه لم يشع ما رآه تنفيذا لنصيحة أمه فرحانة أو تهديد أبيه حلاق الحمير بأن يقطع دابره إذا نطق، لكن سر عباس انكشف وصارت الناس تقول للناس أنه خباص وأنه يرتكب دائما الفاحشة مع الأموات من النساء

والبنات ويسلب الأكفان، لكنه كان مجرد كلام قلناه فى ليلة عيد وربما تهيأ لنا أنه كان عباس لأن العفاريت والجن تتشكل فى هيئة البنى آدمين.

كانت فرحانة أم يوسف هى الوحيدة التى لم تصدق الحكاية وجلست إلى جوار أمى تهدئها وتحلف لها بأغلظ الأيمان بأن المسألة كلام عيال وأن زوجها عندما كان يجمع مشايخ الكفر والفقهاء لم يكن قد سمع مثل هذا الكلام الفارغ وإلا ما كان اتفق مع عباس، وحفظة المصحف والمقرؤون فى كفرنا وكل الناحية متواجدون وجاهزون ورهن الاشارة فى كل الأوقات.

لكن الليلة لم تفت على خير، كانت الدار قد صارت شبه خالية بعد أن تسحبت النسوة واحدة فى أثر واحدة وما تبقى غير جدتى وفرحانة وأم الشحات، أما الرجال فلم يكن هناك غير أبى يوسف وزميل لأبى منقول جديد لمكتب الصحة وقد جاء ليؤدى واجب العزاء، ثم سأل إن كان السير فى السكة الزراعية بعد المغرب خطر فجاوبه أبى بأنه من الممكن أن يقضى الليلة فى دارنا حتى يطلع النهار.

لابد أنه كان صوت زغرودة ذلك الذى سمعناه يخترق آذاننا من جهة آخر الشارع ناحية بوابة أولاد عوف، قامت فرحانة أم يوسف من جلستها بجوار أمى وقد نجحت فى تهدئتها من ناحية دخول عباس الأعرج دارنا ومشاركته الفقهاء قراءة الخاتمة الشريفة والتى لابد أنها بسبب وجوده لن تنفع ولابد من إعادتها، لكن صوت الزغرودة كان بمثابة موضوع جديد أهم من موضوع الخاتمة وعباس ومسئولية أبو يوسف عن وجوده، خرجت من باب الدار تستطلع الأمر فما غابت بضع دقائق حتى سمعنا أصوات متداخلة زغاريد ثم أصوات استغاثة وصراخ ورمح وفرحانة تعبر من باب الدار المفتوح وهى تستغيث لا أدرى بمن:

– الحقونى .. الحقونى.. ح يموتونى.. الحقونى يا ناس.

وعندما اختفت فرحانة داخل الدار رأينا زوجة عبد الصبور وزوجات أولاده الكبار وعياله الصغار يقفون عند الباب ولا يتجاسر أى منهم على عبور عتبتها وهم يسبون

فرحانة ويهددونها بالهلاك إذا ظهرت لهم، طلعت جدتى وطلع أبى يستوضح الأمر فعرفنا أن فرحانة بطحت الشيخ عبد الصبور بقالب طوب أحمر وأن الرجل فى الدار غرقان فى دمه، أبدى أبى دهشته مثلما اندهشنا وسألناهم عن الأسباب فتبادلوا نظرات حائرة ولم يرد على السؤال أحد، لكن بعض الجيران ممن كانوا فى المنطقة يتسكعون فسروا لنا الأسباب وهم يطردون من كانوا يطاردون فرحانة ويهددونها منذ لحظات فانسحبوا جميعا بتراخ وكسل.

– الخلق دول زى ما يكونوا قلعوا برقع الحيا، لا بيراعوا جيرة ولا قرابة، هو ده وقته؟! يشرطوا شرط ويقروا فاتحة ؟

وعندما ظهرت فرحانة وقد اطمأنت عرفنا منها تفاصيل ما جرى، عندما اكتشفت فرحانة أن عبد الصبور «الخنزير» اختار هذه الليلة بالذات ليكيدنا حيث قرأوا فاتحة عبد النصير الليلة على بنت جعفر الشوكى وهو نسب لا يشرف ولا يرفع رأسا تباكت أمى وهى تتذكر

كيف كان عبد النصير يلح فى طلب المرحومة زينب وكيف أن أبى رفض وأنها رفضت أن تعطيها لواحد مثله لا علام ولا تربية ولا أصل ولا قيمة، تباكت أمى وفرحانة تهدئها وتمنيها بخلفة بنت غير البنت تتسمى بالاسم نفسه وتعيده على ألسنة أهل الدار، هل ارتاحت أمى للفكرة وتمنت حدوثها؟ ربما تمناها أبى وتمنيناها لتكون لنا عوضا عن زينب، تلك التى انخطفت بلا مقدمات.

وقالت جدتى لأمى أنها لو كانت لها أخت شقيقة أم وأب ما كانت عرضت روحها للموت فى دار عبد الصبور، وما كانت أخلصت لها أكثر من فرحانة، قالت ذلك واتمنت لها الستر وأن يرزق الله ابنها يوسف من حيث لا يعلم ولا يدرى فوافقتها أمى وقالت :

– آمين .

* * *

إبداع يوليو ٩٨

عن الأحلام المبتورة

كنت أظنها مجرد مصادفات من بين المصادفات التى يندر أن التفت إليها أو أمعن التفكير فيها بعد حصولها، كانت مثل هذه الأمور تحدث، أقوم من نومى وأستعيد ما كنت أحلم به فاكتشف أنه حلم مبتور، لكننى عندما أعاود الرقاد أراه بنفس تفاصيله أو بعضها قبل أن يكتمل الحلم، كنت أقول لزوجتى فتقول لى ولنفسها:

– حتى أحلامك تأتيك بالتقسيط أو بالقطارة مثل رزقنا القليل ؟

– كنت من ناحيتى أهون على نفسى الأمر وغالباً ما كنت أنساه، لكن ما كان يكيدنى هو تلك الأحلام المبتورة بفعل فاعل والتى لم تكن تكتمل أبدا، وكانت هى نفسها تبتر بعض أحلامى عندما تلح على إيقاظى وإفزاعى عندما تهزنى وهى تصرخ مثلا لأن تلغرافاً وصلنى للتو، أو أن قريبا زارنى وهو الآن يقف على الباب ويرفض

الدخول إلا إذا كنت فى استقباله، أو أن غسالتها تعطلت، أو أن رئيسى قد طلبنى على الهاتف وطالبها بإيقاظى، كانت مثل هذه الأمور تتكفل بإفساد مقدمات الحلم وتجعله يتسرب من الذاكرة مثل الغازات الطيارة فلا يكتمل الحلم أبدا.

قلة قليلة من أصدقائى يعرفون حكايتى مع الأحلام، يجعلونها فى بعض السهرات المشتركة مجالاً للسخرية من عقلى الباطن الذى هو شديد الغرابة ومتعدد الرغبات والمطامح كما يقولون، بل أنهم يعتقدون أنه جسور يتخطى حدود الممكن ويسرح فى متاهات المستحيل، وأنا اختلف معهم إذا تحاورنا فى مسألة ما يجوز لى أن أحلم به وما لا يجوز، أدافع عن نفسى بأننى لا أتجاوز حدودى إلا فى الأحلام، صحيح أننى أدخل فى صراعات مع زعماء العالم، بوش وتاتشر وهتلر وكيم إيل سونج والخمينى وميتران وديجول وأنديرا غاندى وماوتسى تونج وعبد الناصر والسادات وكارتر وكاسترو وجورباتشوف وستالين وبعض جنرالات أمريكا اللاتينية الكثار، وأحيانا

كنت أحلم بالملوك القدامى من أمثال رمسيس وتحتمس وحمورابى وسليمان الملك وبعض الأباطرة والقياصرة والسلاطين والدكتاتورات ومغتصبى العروش وذوى المعالى والهمم والقُوَّاد الكبار مثل صلاح الدين، والاسكندر وروميل وهولاكو وغيرهم، كثار ممن لا يليق أن أزحم بهم حكايتى وأذكرهم أو أتذكرهم بينما هم متواجدون بين صفحات التاريخ المكتوب عكس هؤلاء الذين مازالوا يعيشون ويمارسون أدوارهم حتى هذه الساعة برضانا أو غصبا عنا نحن المحكومين الذين نادرا ما يقيم لهم – أمثال هؤلاء الحكام والقادة والأبطال – الكثير من الاعتبار أو الحساب، لكنه التاريخ هو الذى شغلنى اجتذبنى وحيرنى وشفانى فى نفس الوقت، هو التاريخ الذى دعانى لأن أكوِّن أفكارى عن هؤلاء وغيرهم ولابد أنهم انطبعوا فى عقلى الواعى على نحو مغاير لما كان يحدث فى الرؤى والأحلام حيث اندفاعات العقل الباطن تجعلنى أتجاسر فأصادق البعض منهم وأعادى البعض الآخر، وما بين المصادقة والمعاداة كنت ألوم أو

أوبخ أو أعاتب أو أعارك، كأنما كان ذلك العقل الشيطانى العاصى مفصولا عنى رغم محاولاتى لأن أكبح جماحه أو أن أصحح مساره وأذكره بأننى مجرد مواطن بسيط بلا سلطان فى بلد يتوسط العالم ويتعرض لعشرات المشكلات التى تكابدها بلدان العالم الثالث فى زمن يتحكم فيه الأقوياء، كان يمارس شطحاته ويسرح على هواه مما دعانى إلى الكف عن سرد الأحلام لتلك القلة القليلة من أصحابى حتى لا أتعرض للمزيد من سخرياتهم أو استنكاراتهم لأحلامى.

* * *

كنت أطحن بأضراسى خبزا مغموساً بطبيخ بائت عندما شعرت به ينكسر ، وبلسانى استطعت أن أفرز العجين وأعزل الجزء الذى انكسر من الضرس، كانت شيئاً ضئيلا مثل رأس الدبوس،، سطحها مستو ولامع وظهرها مصاب بالتسوس، ألقيت بها جانبا بعد أن فحصتها وبلسانى جعلت أتحسس مكان الكسر فى زاوية الضرس المجاور لضرس العقل، باح لى لسانى دون أن

ينطق بأن الثقب الذى تخلف عن الكسر عميق عميق، وفكرت أنه يلزم علاجه على وجه السرعة، وبلسانى تحدثت لزوجتى بحماس عن فجيعتى التى أصابتنى ربما بسبب (ظلطة) عائمة فى الطبيخ البائت الذى قدمته لى، أو فى العيش المخبوز فى مخبز الحكومة الآلى الذى افتتحه الوزير المحافظ منذ أيام قلائل، ولابد أننى بالغت فى إظهار الغضب من طبيخ البيت الذى هو مسئوليتها، والخبز الذى هو مسئولية المخبز الآلى، كانت هى تتأملنى فى صمت حسبته تضامنا معى أو تعاطفا مع حالتى وقد انصاب أحد أضراسى غدراً لكنها فاجأتنى باندفاعها الهادر فى احتجاج :

– كأنك تعايرنى بأسنانك وأضراسك السليمة، عيشتنى فى الهم فخلعت أضراسى وتكسرت أسنانى بسبب نقص الكالسيوم فى طعامى كما قال طبيب الأسنان نفسه، هل تنكر أنه قال ذلك ؟

أفقت لنفسى وأنا اسمع منها وأراها مثل وحش جريح غضبان مستعد لأن يفتك بمن يعترضه، ربما أكون قد

أوشكت على التحول من إحساسى بالدهشة والمفاجأة إلى إحساسى بشىء من الخوف السابق لحالة الاستنفار المضاد أو الاستئساد فى غابة الدنيا من أجل البقاء، مجرد البقاء لكنها انطلقت فى بكاء حار وأنين موجوع وكأن أمها التى ماتت منذ سنوات ماتت مرة أخرى فى تلك اللحظات، ومن ناحيتى بدأت أصالحها وأهدئها وألاطفها وأؤكد لها أننى لم أقصد معايرتها بشىء أو تذكيرها بأضراسها المخلوعة أو أسنانها التى تكسرت بسبب نقص الكالسيوم الملعون، كنت فى تلك اللحظات أحتاج إلى من يواسينى ويربت على كتفى ويصالحنى مثلما أفعل معه، لكننى ضحيت بنفسى وبوجعى من أجل تجفيف الدموع التى كانت تتساقط بانتظام، وبدا لى أننى سمعتها تدعو «وتنحب»

يارب .. انت أعلم بحالى .. يارب.. فرجنى عليه.. كسر أسنانه.. وخلع أضراسه يا كريم.

ولأنها كانت تبكى وتنتحب فقد كانت كلماتها ممضوغة وغير واضحة،، لكننى أخذتها بالشبهة وشعرت بالسخونة

تصيب دماغى وتتسرب إلى أطرافى، كنت أستشعر شماتتها وقلة خوفها على أحوالى، وقلت لنفسى بكاء ببكاء أو انهزام بانتصار أو غدر بغدر، فرحت أضربها وأضربها حتى انهدت قواى وانهدت قواها فتهالكنا على نفس الفراش ورحنا فى النعاس متجاورين ومتلاصقين.

* * *

كانت مواجع الليل من الضرس المكسور تتزايد، لم تفلح حبات القرنفل ولا معجون الأسنان فى تخفيف المواجع، كانت لافتة طبيب الأسنان الساكن فى العمارة المقابلة أمامى تغرينى بالمغامرة، غامرت وذهبت اعتمادا على علاقته المهذبة معى وأدبه الجم الذى يلقانى به، توقعت أن يحتفى بى وربما يرفض المقابل المادى الذى يحصل عليه قبل الكشف، عندما رآنى ابتسم ببشاشة فظهرت أسنانه اللامعة البيضاء وكأنها إعلان ناجح عن معجون أسنان من انتاج البلدان الشمالية المترفة، همهم بما يفيد أنه كان يتوقع زيارتى منذ أيام فتأكدت ظنونى فى زوجتى التى لا تكف عن الثرثرة لكل جارتها عن

أسرارنا الصغيرة والكبيرة، أخفيت دهشتي وأنا أجلس على المقعد المخصوص حيث أشار، وعندما طالبني بأن أشير إلى مكان الوجع أشرت وأوضحت ظنوني في (ظلطة) في الطبيخ أو خبز المخبز الآلي حديث الافتتاح، نظر هو نحوي في إنكار مكتوم وربما في ازدراء فشعرت بالخجل ولم أسترسل أكثر، سألني عن عمري على وجه الدقة فتباهيت بأنني أوشك على إكمال سنوات العقد الخامس من عمري فبدا حزينا لا أدري لماذا، لكنه سرعان ما حول حزنه إلى جفوة مفاجئة، صار يشير ولا يتكلم، وكان على أن أحاول ترجمة حركاته واشاراته، أفتح فمي أو أغلقه، أخلع منظاري أو أستند جيدا على المقعد، وعندما تركني وجلس إلى المكتب يكتب تذكرة العلاج توجهت إليه وتناولتها وأبديت استعداداً ظاهراً لتنفيذ تعليماته التي كان يصدرها بفظاظة وغلظة وكأنني صرت عدوه لحظة أن دخلت عيادته بصفتي مريضا، على عكس ما كنت أتوقع وعلى عكس ما كان يحدث وكأنه شخص آخر يشبهه، وفكرت أن البعض يتبدلون إذا

أحسوا بأهمية أدوارهم أو خطورة مهنتهم وقدرتهم على إصدار الأوامر وهم جلوس وراء مكاتبهم ولا يسمحون بأن يعترض عليهم أحد، وتأكد لى أنه قد تبدل إلى طبيب أسنان له سلطان وسطوة، وأننى فقدته كصاحب مهذب وجار ودود عندما لجأت إليه مرعوبا من مواجع ضرسى، وعلى نحو غامض تعاطفت مع كل أصحاب السلطة والسلطان إلى حد أننى كنت أوشك على تبرير خطاياهم الفادحة ضد الشعوب.

* * *

كنت قد قرأت تحقيقا فى صباح نفس اليوم عن مرض الإيدز، وكان من بين ما قرأته أنه من الممكن أن ينتقل الفيروس القاتل بواسطة حقنة يتكرر استخدامها، وبغموض أشار كاتب التحقيق إلى الحقن التى يستخدمها أطباء الأسنان، ركبتنى الوساوس وفكرت فى أن أتخلف عن موعدى لولا شدة الألم وتنبيهات زوجتى المتكررة قبل حلول الموعد وتأكيداتها أنه دقيق فى عمله ومواعيده، تواكلت وتحاملت ونهضت ثم ذهبت، كان واقفا قبالتى

بأسنانه اللامعة، عندما انفتح الباب، ففهمت أنه ينتظرنى وحده وأنه لا ممرض أو ممرضة ولا مرضى، وحدى معه ووحده معى، أجلسنى على المقعد وأمرنى بأن أفتح فمى ففتحته، أن أخلع منظارى فخلعته أن أعتدل فى جلستى فاعتدلت، وبدا لى أنه غرس شيئا بالقرب من حلقومى وصدقت فكرتى لأنه استنهضنى بإشارة تبعتها إشارة أخرى إلى الصالة الفسيحة :

– سوف أناديك.

– هل ؟ ...

– انتظرنى حتى يفعل البنج مفعوله فى اللثة.

قال ويده تدفعنى دفعاً كى أخرج من باب الحجرة المفتوح، كان فى واقع الأمر يطردنى، وكنت فى واقع الأمر أسيره المحبوس العاجز عن الفرار، ولأننى لم أكن أعرف صلاحياته على وجه الدقة فقد جلست حيث أشار وانتظرت وعندما أشار إلى وهو واقف فى منتصف مدخل الحجرة قمت وأسرعت ناحيته، أجلسنى مرة أخرى بإشارة من يده، أمرنى بفتح فمى ففتحته، أمرنى أن

أفتحه أكثر ففعلت، سمعت أزيز الإبرة الدوارة المتصلة بسلك غليظ ، أمرنى بمعاودة فتح فمى أكثر فحاولت رغم إحساسى أنه كان مفتوحا عن آخره، حرك أدواته وأمرنى بالمضمضة بسرعة فأسرعت، أمرنى بأن أثبت فى مكانى فتماسكت كنت أشعر بشدة الجذب فى الاتجاه المضاد إلى حد أن الرجل كان يوشك أن يسحب رأسى إلى أسفل، يعافر بكل عزمه ويستجلب عزما إضافيا ليجذبنى إلى أسفل من فكى الأعلى الذى لابد أنه كان يمسكه بكلابة متينة فى قبضتيه، كنت اتحامل واتماسك وأتظاهر بالثبات فى مواجهة القوة المتجبرة، ولابد أنه مر وقت طويل حتى أنسل شىء كان يتهزهز ممسوكاً من كل الاتجاهات انحشرت قطنه طبية فى فمى من الداخل عند التقاء الفكين، وبيده أطبق فمى المفتوح عليه فانطبق، كان الرجل يتصبب عرقاً ولا يحرص على الابتعاد عنى مما جعل قطرات من عرقه تتقاطر فوق خدودى وأنفى وجبهتى وشفتى، وعندما رأيته يجفف عرقه من علبة المناديل الورقية فكرت فى استخدامها لكنه أخذ كل محتويات

العلبة بين قبضتيه وجعل يستخدمها وكأنها قطعة لحم وحيدة فى طبق بين رجلين تجاسر أحدهما واستولى عليها دون أن يعير الآخر أدنى اهتمام، مسحت وجهى براحتى ووقفت انتظر، ولابد أنه لم يكن يشعر بوجودى رغم وجودى قبالته فى المكان أو أنه كان يرانى من مقعد أو باب أو جدار أصم ، تنحنحت لأذكره بوجودى فقال بآلية وكأنه يحادث نفسه بعد أن قطع مشوارا لا يستهان به:

– أه .. ضرس العقل متعب، متعب دائما لطبيب الأسنان وللمريض فى بعض الحالات، كان ضرس عقلك فى كامل عنفوانه وقوته، خلعته بمعجزة.

كانت القطنة فى نهاية فكى، فقلت من بين أسنانى مستنكراً :

– ضرس العقل ؟

– سوف تشعر ببعض الوجع، لكنه سوف يزول بمرور الأيام، وعلى فكرة، ضرسك المكسور مازال فى مكانه، وربما أتمكن من علاجه أو حشوه قبل أن أفكر فى خلعه.

- وضرس العقل؟

- نظر إلى بدهشة وكأننى أخطأت بتكرار سؤالى كنت أشعر أننى سقطت من فوق الهرم الأكبر أو أننى خسرت عقلى عندما أسلمت نفسى للرجل ليخلع الضرس السليم ويهمل المكسور، ولم أكن بقادر على الكلام أو الاحتجاج أو الغضب فتركت عيادته ونزلت مهزوماً على درجات السلم.

الأهرام نوفمبر ٩٤

عن الحلم الممتد

لابد أنه هناك علاقة مؤكدة بين أنواع الأحلام والرؤى ووجود أو عدم وجود ضروس العقل، ولابد أن وجودها يمنع امتداد بعض الرؤى ثم استمرارها وتواصلها على طريقة المسلسلات التليفزيونية الهابطة والمملة التى يعرضونها، فتوشك أن تصيب متوسطى الذكاء بالتخلف العقلى، لكنك ما دمت ذكياً فأنت تعرف أيضا أنك تملك مفتاح جهازك، تسكته أو تحول قنواته على العكس من تلك الأحلام الكابوسية والمرعبة التى بدأت تحاصرنى وتطاردنى فى نفس تلك الليلة التى خلعت فيها ضرس عقلى ولو كانت حلما كابوسياً مبتوراً لهان الأمر، لكنها استمرت وتواصلت على نفس الوتيرة، ما إن أنعس أو أغفى حتى أجدنى داخل تلك المدينة الغريبة مواطناً من الدرجة الثانية أو الثالثة، أبدأ من تحت السلم الوظيفى كما يقولون وأبقى فى منطقة النصف الأدنى، أعافر لكى

أتخطى الخط الوهمى الفاصل بين الفوق والتحت ولا أفلح أبدا، تترصدنى كل جدران المدينة وسقوفها السفلية وكأننى عدوها الوحيد المستهدف، بينى وبينها دم وثأر موغل فى القدم، يتأجج بواسطة أعوان تلك المنظمة الجهنمية مستحيلة الوجود، ولابد أنه عقلى، الباطن الذى انحرف تماما بعد أن خلعت ضرس عقلى لابد أنه عقلى الباطن الفاقد عقله هو الذى أنشأها وحبسنى فيها كل ساعات الرقاد، وعبثا حاولت الفرار بالصحو قدر المستطاع فلم أفلح، كان من المستحيل مثلا أن أظل صاحيا طوال الوقت، كنت أستطيع فى البداية أن أزود ساعات الصحو على حساب ساعات الرقاد، كنت ألجأ إلى المنبهات، كل أنواع المنبهات، المشروعة والمنوعة، لكننى كنت برغم كل شىء أنام فى نهاية الأمر، وأرانى فى تلك المدينة الغريبة، أكابد استمرار الحلم الممتد الذى هو فى واقع الأمر كابوس عقل باطن بلا وعى، الخطير أننى بكل الحسابات الواعية انشطرت بين مدينتكم التى تعرفونها جيدا وتلك المدينة التى لم يدخلها أحد غيرى، أو

على الأقل لم يبح بأسرارها أحد غيرى، فمن يدرى لعلها بالفعل موجودة فى تلافيف بعض العقول الباطنة الأخرى ولا يتجاسر أصحابها على الكشف عنها أو البوح بوجودها أو أن يخجل البعض من الحديث عن سخافات أعوان تلك المنظمة الجهنمية التى تسيطر عليها، وربما لو تعارفنا من خلال البوح الجسور نستطيع أن نكوِّن نقابة أو جمعية أو اتحاد يجمعنا وتكون مهمته الأولى هى التصدى لسخافات تلك العقول الباطنة، ولابد أنه سوف تنشأ علاقة حميمية بين هؤلاء الناس وعلماء النفس المحدثين ممن لديهم الاستعداد للدخول فى مغامرات علمية أو أبحاث رائدة، ومن يدرى، ربما استطاع هؤلاء العلماء من خلال السعى إلى الوصول لمفاتيح العقل المخفى المارق الذى هو مثل عفريت أو جنى فاسق، ربما توصلوا إلى مداخله ومخارجه، ربما تعرفوا على مساربه الغامضة المعتمة التى أجهلها ويعرفونها، وربما حتى من غير علماء النفس استطاع الضحايا أن يتساند الواحد منهم على أكتاف الآخر بالبوح والشكاية، ولعل البوح

والشكاية فى مثل هذه الحالات علاج ودواء، ولعل الداء تزايد عندى وعند غيرى بسبب الكتمان والسكوت، وأخيرا قبل أن أصف لكم تلك المدينة السفلية يلزم أن أناديكم يا من خلع أطباء الأسنان ضروس عقولكم لتسمعونى وأسمع منكم قبل أن يغلبنى النوم ويغلبكم.

* * *

رأيتنى تحت الأرض أمشى فى السرداب الموحل أكابد إحساسا بالبرودة الشديدة إلى حد الارتعاش يتلوه إحساس معاكس بالسخونة الشديدة والصهد، أرتعش ثم أغرق فى قطرات العرق النازف من كل أجزاء جسمى، شىء آخر غير حمامات «الساونا» التى يدخلها الأكابر فتجدد خلاياهم، شىء يدمر الخلايا ويستنزف قدراتها وأنا أسعى فى اتجاه الشعاع الخافت البعيد، أسمع أصوات التحذير والتشجيع تتعالى لأتراجع أو أكمل المشوار وأنفذ من الطاقة الضيقة التى كنت أدنو منها رغم الأوحال التى تنغرس فيها قدماى فاجتذبها وأخلصها بكل عسر وأتعلق بحافة الطاقة...

صحوة .. ..

أعافر بكل عزمى حتى لا أسقط، أسمع أصوات التشجيع والتيئيس وأتذكر أننى من نسل فلاحين فراعين خشنين وأقوياء فأنفذ رغم اتهامى بأننى جلف مثل أسلافى، أتقدم بطلبى المدموغ للحصول على الوظيفة فى وسط الزحام وعشرات الأيدى تمتد إلى النافذة الضيقة مثل شباك الدرجة الثالثة لسينما مصر / طنطا فى نهايات الخمسينيات، ضيِّق وعليه دائماً زحام والشاطر من يصعد فوق أكتاف الناس ليحصل على تذكرة الدخول قبل أن ينتهَى الميعاد، ولابد أننى طلعت فوق بعض الأكتاف وأزحت بعض الأذرع وقدمت طلبى وأنا أتعلق فوق الأبدان ثم استعدته وقد تأشر عليه من الرجل المسئول بما يفيد قبول الطلب، وفى خانة الوظيفة كتب بخطه المبجل «مساعد دبَّاغ».

صحوة .. ..

« على باب المجـــزر الآلى كنت أقف بلا سكين أو ساطور أو خنصر أو مدية صغيرة كانوا يقفون طوابير

متراصة بكامل هندامهم وأسلحتهم المسنونة التى تلمع نصالها، أخذت مكانى ممسكاً بقرار توظيفى فقال أحدهم وهو يشير ناحيتى:

– لابد يا حضرات أن فى الأمر توصية أخرى من أحد الدباغين الكبار.. انظروا إلى هيئته، أنه لا يصلح للوظيفة.

«التفت الكل ناحيتى وأظهر كل واحد منهم طلبه الممهور بالتوقيع الرسمى وعليه نفس التأشيرة «مساعد دباغ» بقلم صاحب الخط المبجَّل، أدركت أننى لم أكن وحدى وأنهم جميعا ينافسوننى فى الحصول على وظيفة واحدة، فسقط قلبى إلى ما تحت القدمين وصار يئن من فرط العناء وانعدام الحيلة».

صحوة .. ..

«اختارونى بمعجزة، وجدونى بلا سلاح أو هيئة مميزة فتهامسوا فى أمرى وأرضاهم أن أكون بلا سطوة أو قدرة أو حتى رغبة فى الصراع على شىء.. أى شىء وبسرعة أدخلونى دهاليز المجزر الآلى وسلمونى آلات الذبح الآلى، عهدة وآلات السلخ الآلى، عهدة أكون مسئولا

عنها فى كل الأوقات وكل الحالات، كانت الآلات كبيرة وكثيرة متتابعة على امتداد البصر، خاملة ومقبضة ومخيفة فى ساعات الراحة، صاخبة ومتجبرة ومرعبة فى ساعات الذبح والسلخ، وكان من اللازم أن أكون حارسها الوحيد الذى يلازمها رغم أننى مساعد دباغ حديث لم يمارس مهنة الدبغ أو يعرف أصولها.

صحوة .. ..

هزتنى بعنف فصحوت لأراها فرحانة، فى يمينها الجريدة اليومية وبيدها اليسرى شهادة الاستثمار الوحيدة التى نملكها تلوح بها فرحانة، فرحَةُ من عثر على كنز تحت مخدة نومه بعيدا عن كل التوقعات :

- كسبنا مائة جنيه.. كسبنا مائة جنيه

قمت متحمساً وفكرت أنه من الممكن أن أسدد فاتورة الكهرباء المتأخرة وأن أشترى بعض المطالب اللازمة لسد الأفواه وإسكات البطون، لكننى بينما أراجع الأرقام اكتشفت خلافا فى أحد الأرقام المنشورة - حيث أشارت هى عن الرقم المطبوع على شهادة الاستثمار، شعرت

باليأس وعاودت الرقاد.

* * *

«رأيت كبير الدباغين يوبخ الدباغ الذى أقوم بمساعدته قائلاً فى استياء وهو يشير ناحيتى:

«جلده ناعم ومظهره يدعو للقلق، لابد أنه حدث نوع من الخطأ قبل أن يتم اختياره «مساعد دباغ»، مهنة مساعد الدباغ تحتاج إلى مشاعر خشنة وأحاسيس غليظة ومتبلدة فى ذات الوقت، اكتب لى تقريرا وافيا عن حركاته وسكناته، مؤهلاته وخبراته السابقة وعلاقاته خصوصا مع أكابر المسئولين فى المدابغ، القدامى والمحدثين و.. و.. وبدون مجاملات حتى لا تعرض مركزك ومراكزنا للخطر».

«كان الدباغ الذى أقوم بمساعدته يكتب تقريره المطوَّل عنى على مقربة منى لضيق المكان، وكان من الممكن أن أقرأ السطور سطرا تحت سطر وكلها فى غير صالحى وعندما كانت أصابع الرجل تصاب بالوجع كنت أشفق عليه وأتعاطف معه، من شدة إشفاقى عليه وتعاطفى

عرضت عليه أن أقوم متطوعا بمساعدته بلا مقابل فوافق على الفور، كان يمليني وأكتب، يمليني وأكتب حتى أصابت أصابعي مواجع مفصلية لم أجربها من قبل أبدا، لكنني جاهدت أن أداريها عنه حتى لا أخيب أمله في إمكانيات الاستعانة بي في المواقف الصعبة، وعندما أنهيت الصحفات التي أملاها على تصفحها بإعجاب وجاملني قائلا أن خطي جميل ومقروء، وأنه حتى لو أنني فقدت وظيفة مساعد الدباغ فلابد أن اللجنة سوف ترشحني لوظيفة مساعد خطاط فطمأن قلبي، طلب مني أن «أغوص» كفي اليمنى بدم الذبائح وأبصم بكل الكف على آخر ورقة من أوراق التقرير المكتوب ضدي، ففعلت ما أمرني به وجلست مكاني أنتظر مصيري».

صحوة ... رقاد ...

صحوة ... رقاد ...

صحوات متتالية ... رقدات متتالية

* * *

عن جدوى أحلام الفقراء

سألت نفسى فى الصحو عن جدوى أحلام الفقراء وجاوبت نفسى بأنها بلا قيمة وأنه كان من الأفضل أن تنزاح عنهم تلك الأحلام الوردية لتنزاح عنهم بالمثل تلك الكوابيس والرؤى الكاذبة، وتكشف لى أن الأحلام المبتورة تسبب الضجر بمثل ما تسبب الأحلام الممتدة هموم الليل والنهار دون تفرقة، وأنه لو تخلص الفقراء من تلك الأحلام الفسدانة لكانت لساعات رقادهم فوائد أكثر، وقلت لروحى أنه لو كان الأمر بيدى لحبست كل العقول الباطنة المفلوتة والجامحة التى تتسلل إلينا فى هدأة الليل لترسم مثل تلك المدن السفلية التى دخلها مساعد الدباغ، والتى شاهد فيها عشرات الأعاجيب وفاتته أعاجيب أخرى لم يحسن استيعابها أو رصدها، وأنه لولا لحظات الإلهام ما فكر فى تسجيل ما سجله متصلا ومتواصلا على هيئة أحلام

ملونة كادت أن تكون رائعة لو أنها راعت أصول الحبكة الجيدة وبراعة الإخراج، وقلت لنفسى لماذا لا أحاول تسجيلها مرة أخرى بنفسى بترتيب ونظام وعلى غير تعجل لتتكون لى فى نهاية الأمر ملامح مدينة سفلية مفروشة كل غرفاتها وقاعاتها بجلود الحيوانات، أسود ونمور وثعالب وغزلان وخراف وحمير وجمال وثعابين وزواحف كبيرة الأحجام وديناصورات وخراتيت وحيتان وغيرها، وغيرها من كل أنواع الحيوانات والزواحف ذوات الجلود السميكة والرقيقة على حد سواء، مدينة سفلية مشغولة بالذبح والسلخ والتحنيط مدينة متفردة ووحيدة ومتمكنة فى صناعات الجلود ولا تضاهيها فى الدنيا مدينة، تصنع وتصدر حقائب السفر وشنط المدارس ومداسات الرجال والأطفال والسترات الجلدية والبنطلونات والأحزمة لكنها تبرع بما لا يقاس فى صناعة أحذية السيدات وحقائب السيدات والقفازات الحريمى على نحو غير مسبوق وبأذواق متطورة وملفتة للأنظار، شىء مدهش يا سادة لو استطاعت أى مؤسسة على ظهر

كوكبنا الأرضى أن تتخصص فى تنفيذ أفضل الأذواق والألوان لتبهر عقول الحريم على مستوى العالم المسكون ولتكسب كل المؤسسات المتنافسة وتزيحها عن مجال المنافسة بإعلان إفلاسها مؤسسة فى إثر مؤسسة.

ولأننى كنت فى السابق أرسمها وأحتفظ بها من ذاكرة الأحلام الممتدة فإننى أستطيع أن أشارك أصحاب رؤوس الأموال الكبار الواعين فى تأسيس تلك المؤسسة العالمية المتخصصة فى صناعة وتوزيع مداسات الحريم وحقائبهم وقفازاتهم ولابد أننى كنت أعوِّل على مشاركات بعض الممولين العرب من المليارديرات الجسورين الذين يحافظون على أموالهم فى البنوك الأمريكية أو الاوروبية بعيدا عن حسد الفقراء وكراهيتهم لكل الناجحين، المهم أن نؤسس تلك المدينة السفلية التى تحكمها منظمة عالمية غير خاضعة لأى نظام حكومى فى الشرق أو الغرب ، وتخيلوا معى ملامح تلك المنظمة من ذوى الجلود السميكة التى لا ينفذ منها الهواء أو البخار أو الماء أو الرصاص، وهى على أى الأحوال منظمة مستحيلة وممكنة فى ذات

الوقت اذا تغافلنا باختيارنا وإردتنا وغطسنا فى الأحلام الممتدة على حساب الصحوة والحركة، وساعته يمكننا أن نهبط إلى تلك المدينة السفلية ويهبط معنا كل من يرغبون الصعود ذلك أنها مدينة مقلوبة الموازين تذوب نساؤها عشقا وهياما بالرجال ذوى الجلود السميكة والبارعون فى الكذب والذبح والسلخ ودباغة الجلود كل أنواع الجلود بما فى ذلك الجلود البشرية لفقراء الناس وهم كثرة كما تعرفون، كثرة مقلقة لأثرياء العالم الودعاء.

صحوة متأخرة

رغم فرارى كل صباح من تلك الأحلام بالصحو كنت أراها من جديد تتجسد فى خيالى فى ساعات التأمل والفراغ تسحبنى من عالمى وتدخلنى فى سراديبها المتشعبة، ويعاود كبير الدباغين تهديدى لأننى بحت ببعض أسرارها وسجلت على الورق بعض ما كنت أراه،

لكننى فى واقع الأمر لم أكن أخشاه أو أخشى حملة المداسات الحريمى النادرة، ومازلت مستعدا لمزيد من البوح بما رأيته فى تلك المدينة السفلية العجيبة وأحلم حلم صحو خالص أن ألتقى ببعض من رآها مثلى فى غفلة أو غفوة خاطفة، وكابد فى دروبها مثلما كابدت، ولعلنى فى مثل هذه الحالة أطمئن إلى خلاص روحى منها بعد أن تنزاح من خيالى وتكف عن مطاردتى فى الليل عبر تلك الأحلام الممتدة، ومن يدرى فلعلنى أخلص من تلك المدينة البلهاء التى لا تعترف أو توظف أو تحترم إلا من خلعوا ضروس عقولهم فى الخفاء أو العلن.

الأهرام نوفمبر ٩٤

طالق المطلوق

سوف أحكى لكم مرة أخرى شيئا عن الثور المطلوق الذى يطاردنى فى كل منام، وعفوا لأننى أعاود الشكاية بسبب عجزى عن الكتمان، هو مجرد ثور من سلالة محلية على أى حال، لكنه يرمح ورائى كل ليلة وكأننى عدوه الوحيد، يتبدى لى فى المنام مثل أى وحش كاسر وعاجز عن التمييز، قرونه المسنونة مشرعة فى أعقابى وأظلافه الخشنة المبرية توشك أن تسقط فوق دماغى لولا أننى أهرب وأهرب وأهرب،، أتفنن فى الفرار والتخفى لكننى لا أخلص من مطارداته أبدا، كأنه فى المنام قدرى الذى يلزم أن أتحاشاه بكل الأساليب والحيل، وكأننى قدره الذى لا يناله أو يطوله أبدا ولا يملك الحق فى الكف عن السعى تجاهه كى يهدأ أو يرتاح، وبراح الغيطان والبلدان ووسع الميادين وضيق الأزقة والحارات واتساع المدى يشهدون المطاردات التى لا تنتهى أبدا بين ثور مطلوق بلا صاحب

وعجوز عاجز بلا حيلة.

أتذكر الآن ملامح تلك القرية التى ولدت وعشت فيها طفولتى وصباى وسنوات الشباب الأولى، أتذكر وبشكل مؤكد أن الثيران كانت معروفة لكل ناس القرية، ثور العمدة الشلبى وثور شيخ البلد وثور الباشا الكبير ساكن السراية العالية وثور الست هانم بنت عم الباشا الكبير العانس المتكبرة التى تغطرست على كل رجال الدنيا الذين كانوا يتوافدون على سراية الباشا الكبير ابن عمها الشقيق وولى أمرها شكلا فى عرف الناس، يأتون الى قريتنا من كل الجهات والأقاليم ويطلبونها الواحد تلو الآخر زوجا لكنها ترفض، أعيان وضباط كبار وتجار فى البورصة وباشوات رسمى وأعضاء فى البرلمان وأساتذة فى الجامعة الأهلية ومشايخ «منسر» وأشراف من نسل المصطفى، لكنها كانت ترفض بكبرياء وتدعى أنها قادرة على مزيد من الانتظار، والباشا لا يستطيع أبدا أن يرفع صوته فى حضرتها، يتسمع ردها فى حياء وأدب ويخرج من باب سرايتها الكائن فى مواجهة باب سرايته مطرق

الرأس مهزوماً يوشك طربوشه المائل أن يسقط أمامه لولا ستر الكريم الذى يستر هيبة الأكابر أمام خلق الله بكل أصنافهم وفيهم بالطبع من الأوباش ومعدومى الأصل والتربية فى بلاد الدنيا مثل قريتنا وأكثر.

كان ثور الست هانم بنت عم الباشا هو أشهر ثيران الناحية، ثور ذكر ابن ثور ذكر لا يدانيه فى الضخامة أو القوة أو القدرة على تخصيب البقر إلا ثور الباشا الكبير نفسه ومن باب المجاملة وتطييب الخاطر، وقد كنا نراها وهى على درجات السلم الرخامية اللامعة بثوبها الأبيض الناصع وبشرتها التى تتوهج فى ضوء الشمس بينما يمارس «الكلافون» تغذية الثور والسماح له بأن يسير مختالا فى الممر العريض بين سراية الباشا وسراية الست هانم بنت عمه، كنا نراه ونراها خلسة فى مثل هذه الحالات، وعلنا فى ليلات الإخصاب ومدخل السراية يتلألأ بالأضواء وكأنها ليلة عرس بشرى يحييها العوالم ورقص الخيل على أنغام الطبل والمزمار.

* * *

قال الرجال الكبار للرجال الكبار فى قريتنا أن حكاية الست هانم بنت عم الباشا وثورها النادر وصلت إلى مسامع جلالة الملك، وأنه حدث أن اشتكى أحد الأكابر من أعضاء مجلس النواب إلى أخيه الحكيم الذى يكشف على طعام جلالة الملك قبل تقديمه إلى جلالة الملك، اشتكى الكبير عضو مجلس النواب لأخيه الحكيم من الست هانم التى رفضته عندما تقدم لخطبتها مثل العشرات الذين رفضتهم، وإنه لهذا السبب أو لغيره من الأسباب دبر حكيم مطبخ جلالة الملك حيلة خسيسة ضد ثور الست هانم ، قالوا: أنه همس فى أذن جلالة الملك بأن ثوراً نادراً وقادراً وقوياً مثل هذا الثور يزود العافية والقدرة بشرط أن يطبخ بطريقة فريدة فى ماعون واسع وعلى نار هادئة بحيث تذوب كل الدهون واللحم الأحمر والنخاع والقلب والكبد والخصيتين وكافة الأجزاء تطيب وتذوب ويتبخر مالا يفيد، ولا يتبقى غير مقدار كوب ماء هو خلاصة الثور المشهور الذى كان سببا فى نمو وتكاثر قطيع الأبقار فى كل الناحية والنواحى المجاورة، قالوا أن

الملك صـدق حكيم المطبخ أو أنه كـان يريد أن يصـدق، فأرسل من جاء بالأمر الملكى ليأخذ ثور الست هانم وثور الباشـا ابن عمـها فى نفس الليلة، ليلتها نزل الحزن فى قلوب الرجال ولابد أنه أصـاب البـاشـا وبنت عمـه الست هانم وفاض، انطفأت فى تلك الليلة أنوار السرايتين معـا وسكتت كل الأصوات وما عاد هناك فى تلك الناحية غير نقيق الضفادع وصفير صراصير الغيطان.

* * *

فى المنام كنت أرى الثور المطلوق الذى لا أعرف اسم صاحبه وهو يرمح ورائى وأفر منه، أسمع أصوات الناس تحذرنى من الكسل ولو للحظة واحدة، والثورالمطلوق يطأ كل ما يصادفه من زراعات الفلاحين والأعيان بل أنه كان يفسد أشجار المزرعتين الكبيرتين، مزرعة الباشـا وبنت عمه الست هانم ،وفيهما من خيرات الله ما تعجز الذاكرة عن وصفها، موالح ومانجو وتين من أجود الأصناف، عنب وبطيخ ورمـان وشـمـام وبلح من كل الأشكال والأحـجـام، والثور لا يرحم ولا يميز، فلا فارق عنده بين شجرة سنط

وطفل رضيع سقط فى طريقه، كان الثور يبدو واعياً على نحو ما، وعيه وعى حيوان مكلف بالقضاء على رجل ليرهب بقية الرجال لكننى كنت له بالمرصاد، أراوغه وأجعله يغرس قرنيه المسنونين فى جذع نخلة أو جدار من الطوب الخشن، ولحظتها أتنفس بارتياح حتى تنتظم دقات قلبى من جديد، لكنه كان يفسد الزرع والنباتات، ويفزع النساء والأطفال بينما يخور خواره الشديد المفزع، وكان يتضخم ويتضخم حتى يوشك أن يدارى نور الشمس وشعاع القمر، وأنا أعاند وأتصالب وأتماسك قائلا لنفسى أنه فى نهاية الأمر ثور مثل كل ثيران الدنيا قابل للذبح، وكم كان يشقينى أننى كنت أرمح وأرمح وأفر منه لأننى لا أملك حبلاً لأربط عنقه أو أقيد حركته من أى مكان فى لحظات غفلته، وكنت فى الصحو أسأل نفسى باستنكار، كيف أننى حتى فى المنام مجرد من السلاح، من أى سلاح؟

* * *

طبعا الست هانم حزنت على ثورها الذى ابتلعه جلالة

الملك فى وجبـة واحـدة ولابد أن البـاشـا نفسـه أحس بالإهانة لأنه رغم رتبة الباشوية لم يستطيع أن يحمى ثور الست أو ثوره، وطبعا فقد الرجل هيبته أمام الفلاحين والمزارعين «والكلافين»، أصبح بالفعل لبانة يتشدقون بها إلى حد الاستهانة، ربما كان ذلك بسبب حبهم للست هانم وحزنهم على حزنها، لكن الأخطر من الحزن الحريمى كان حزن الرجال على أحوالهم بعد ذلك أن موسم تخصيب الأبقار جاء وليس فى القرية أى ثور مطلوق يؤدى نفس المهمة التى كان يؤديها ثور الست هانم أو ثور الباشا المهضومين فى بطن جلالة الملك، هل أقول أن مواسم الخصوبة فاتت وأن البقرات كفت عن «النعير» والطلب؟، وأنه حدث أن واجهت كل بيوت القرية نكبة «التفويت» لأول مرة، هل تحسرت كل النساء كما تحسرت أمى وهى تحلب بقرتها فلا تجود إلا بالقليل من اللبن على غير العادة؟. لابد أن الناس كلها فى قريتنا وكل القرى المجاورة واجهت نفس المصير، قل الإدام والجبن واللبن واللحم والشحم، وأصاب العيال هزال مفاجئ، وقال

الرجال للرجال على مسمع من الصغار أن بطن جلالة الملك زادت اتساعا، وأن سيرته زادت فسادا بسبب ثور الست هانم وثور الباشا، ولابد أن جلالة الملك قد استشعر فى عروقه قوة الثيران وقدراتها فطلب من حكيم مطبخه أن يبحث له عن تلك الثيران المشهورة، يعتصرها حتى تتحول إلى جرعة واحدة لا تزيد عن ملء كوب ماء هى خلاصة الخلاصة التى تجعله يتحول إلى رجل مطلوق يقضى معظم أوقاته فى أحضان النساء، لابد أنه حدثت كل هذه الأشياء بنفس هذا الترتيب ولابد أن صفرة وجوه الناس فى القرى المجاورة والبنادر كانت بسبب ما جرى فى تلك النواحى من ذبح وسلخ وطبخ كل الثيران المطلوقة على نار هادئة أجادها حكيم المطبخ الملكى على امتداد السنوات.

* * *

لم يكن ما حدث من ذلك الولد وليد مصادفات عارضة على كل حال، كان الأمر يبدو لى فى أوله مجرد أخطاء بسيطة فى التربية أو سوء خلق مكتسب ممن أولاد

الشوارع الذين يختلط بهم فى مشاوير الذهاب والإياب من المدرسة، كنت أنا فى واقع الأمر أقوم بدورى على أكمل وجه وكانت هى تفعل نفس الشىء، تبذل كل ما فى وسعها من أجل راحته، كنا قد أعطيناه خلاصة سنوات العمر وتسامحنا عن هفواته ونزواته الصغيرة، وكنا نشعر بالفرح وهو يكبر أمامنا، يغلظ صوته ويظهر الزغب الأصفر فوق شفته العليا، معلنا أنه صار لديه الآن مشروع شارب، وكان ساعده يشتد وتطول فترات مكوثه فى الحمام فنتهامس بأنه لابد يكتشف علامات مراهقته الأولى، وكنا نشعر بالفرح ونكتم الفرحة خلف نكات عابرة وكأننا نخشى عليه من الحسد، نبدِّل الموضوع قبل أن يخرج هو فتداعبه أو أداعبه بأى كلام يخطر على البال يتبدى لنا فى بعض الأوقات طفلاً لا يزال، وفى بعضها الآخر رجلاً حقيقيا يدارى عنا علامات رجولته خجلاً مهذباً أو عجزاً عن البوح لى أو لها على انفراد، رغم كل التلميحات التى كنا نلقيها على مسامعه على أمل أن يستجيب، كان وحيدنا الذى لم يكن هناك قبله أو بعده

وريثنا الوحيد وذخيرتنا الحية لمستقبل الأيام.

. عندما رأيت عقب السيجارة يطفو فوق ماء القاعدة رغم اندفاعة المياه المعتادة بعد قضاء الحاجة، لم أفكر فى الولد رغم أنه كان هناك قبل دخولى ، تبادر الى ذهنى أنها هى التى دخنت سيجارة من سجائرى لتداوى بها صداعاً كان قد أصابها وحدثتنى عنه فى صباح نفس اليوم، لم أكلف نفسى عناء سؤالها فى الأمر، ربما لأحميها من لحظة خجل سوف تصيبها وتربكها بينما تعترف بالتدخين وهى لا تكف عن الإلحاح علىّ لأبطل التدخين لأنه يفسد الصحة ويورث الفقر، لكن الأيام توالت وكدت أنسى الأمر كله لولا أننى انتبهت إلى تناقص اللفافات التى احتفظ بها، كل يوم تتناقض بشكل طردى وملفت للنظر، قلت أراقب الحمام لأتأكد فتبين لى أنه يدخن خلسة وأنه رغم الاحتياطات التى يتدبرها فانه لا يتمكن من إخفاء كل معالم جريمته، كانت تتبقى فى الحمام بعد خروجه رائحة التبغ وعلى الأرضية ذرات الرماد الذى يتخلف ويتساقط من طرف اللفافة المشتعل،

ولابد أن الآباء فى مثل هذه الحالات يجمعون كل الدلائل قبل أن يعلنوا اكتشافهم لأولادهم أو لزوجاتهم وقد حدث أن حدثتها عن الأمر قبل أن أواجهه فنصحتنى بأن أتريث أولا قبل أن أحاسبه وأنا مفلوت الأعصاب، بل أنها نصحتنى بأن أترك لها مهمة تنبيهه إلى مساوئ التدخين بأسلوبها الهادئ وأعصابها الباردة، قلت لروحى لا بأس، هى مهمة صعبة على كل حال ولابد أنها أقدر منى على معالجتها.

* * *

كان الولد يضربها بقسوة وتصرخ وعندما انفتح الباب بمفتاحى كف عن الضرب لكنه ظل واقفا فى مكانه يتأملنى بلا وجل، كانت هى تنزف الدم من فمها الجريح وتستر عرى فخديها من أثر تمزيق ثوبها، كنت فى واقع الأمر أوشك على السقوط فى مكانى من هول الدهشة، هل كان ما أراه بالفعل هو نفس الولد الذى أعطته بلا حساب؟ وهل هو عاق فاجر أطل برأسه فجأة من خلال الولد الذى تجاسر وأهانها إلى هذا الحد، لم أتمالك

نفسى عندما كنت أصفعه بكل عزمى ويتحاشى صفعاتى، يتقافز برشاقة إلى الناحية الأخرى فأعاود المحاولة وتطيش ضرباتى فى كل مرة، هل أنهكنى أننى كنت أحاول ضربه ولا استطيع؟ وهل هذا الذى اشتد عوده وانفلت عياره إلى حد أنه كان ينظر ناحيتى مبتسما باستهزاء واستهانة هو نفس الابن؟ أصابتنى حمى وارتميت فى نفس مكانى، ألهث معترفا بعجزى عن ملاحقته والآخر واقف قبالتى يذكرنى بأننى عجوز وعاجز وأنه من الأفضل لى أن أعيش بقية أيامى مؤدبا بدلا من أن يعلمنى هو الأدب، كان يدخن وينفث دخان سيجارته تجاهى فتظهر من خلال سحب الدخان شياطين ومردة وكلاب مسعورة وأغلال وأسوار سجون وقضاة وعسكر وأنات أمهات فقدت أولادها، وكنت أرغب فى الصراخ لكننى انخرست، أصابنى خرس قبل أن أعترف لنفسى بأننى بالفعل قد عجزت عن حماية امرأتى من شراسة مجرم محترف يعيش فى بيتى ويرقد على سريرى ويرتدى ملابسى وقتما يشاء، يدخن سجائرى ويأكل خبزى

ويسلب نقودى بحسب ما يريد، كنت أعانى مع الخرس إحساس بالوهن الكامل والعجز حتى عن الزحف على بطنى مثلما تفعل أى حشرة جريحة وكان الولد رابض هناك فى نفس مكانه يتأملنى ويتأملها بشماتة ووقاحة تؤكد لى ولها أنه ابن حرام.

* * *

كان الثور المطلوق الذى للست هانم يرمح أمامى فى المنام، أسعى وراءه كى أستعيده للبقرات التى كفت عن الولادة وإدرار اللبن أوشك أن أمسكه من قرنيه بلا رهبة أو تردد، يبدو لى رغم قوته وضخامته قابلا للاستئناس طيعاً، أبحث عن حبل قيادة فلا أجد، والثور قريب منى وفى متناول يدى، يتباطأ فى خطواته وكأنه عقد معى اتفاقا لأعيده منقادا لأهل القرية والست هانم بنت عم الباشا الكبير، وأراها فى البعيد تنادينى وتناديه، لكن الثور الآخر يأتى رمحا من البعيد فى اتجاهى وقد شرع قرنيه المسنونين وأظلافه المبرية فأفر منه، أرانى بين ثورين أطلب أحدهما ويطلبنى الآخر، نعبر المزارع

والحدائق والشوارع والمناطق الساكتة، وأتداخل فى ساعة الخطر فى بدن الثور الطيب أمتزج فيه والآخر يطاردنى بعناد وشراسة ، أطلب من نفسى ومنه أن نستدير ونواجهه بدلا من ذلك الفرار المخجل، أذكره بأنه يملك هو الآخر قرنين وأظلاف قوية، يتباكى ويطلب منى أن أسن له قرنيه وأن أبرى أظلافه وأتعجب لأننى لا أملك أى أدوات للسن أو البرى، لا مدية ولا شفرة حلاقة ولا مبرد، تطول المطاردة وأرى وجه الست هانم بنت عم الباشا الكبير وأسمع شكايتها من حكيم مطبخ جلال الملك الذى أخذ ثورها الطيب وحوله إلى مجرد طبخة معبأة فى كوب ماء ابتلعها جلالته ضمن وجبة غداء، تحذرنى من إمكانية تكرار الطبخ بنفس الطريقة السابقة، وأنه فى هذه الحالة سأكون أنا نفسى فى داخل الثور المطبوخ وسوف أذوب أو أتضاءل قبل أن يبتلعنى جلالة الملك، أفكر فى تخليص نفسى من الثور الطيب فأرى الثور الغشيم ورائى، أعاود الرمح والاختفاء فتناديني أم الولد هذه المرة وأخجل من الظهور أمامها أبقى فى

مكانى ضمن مكونات الثور القديم الذى يجرى ليحمينى من احتمالات الذوبان فى وجبة أو الذبح بأمر ملكى مثلما حدث له، نتبادل أنا والثور الطيب بعض الحكايات القديمة عن الست هانم التى ظلت على عنادها دون زواج، والتى ظلت عفية وصبية وقوية رغم مرور السنوات،، والتى لم تفقد جمالها أو سحرها رغم موت الباشا وكل أولاده فى أحداث عارضة، أشعر بارتياح وأنا ألمح الثور الآخر وقد انحرف بعيدا عنا وكف عن المطاردة، أفكر فى الذهاب إلى مأوى يأوينا وقد اطمأن قلبى، أننى على كل حال جزء من ثور مهذب من أفضل السلالات، وأننى أستطيع لو أردت أن آخذه إلى بيتى وأن أستضيفه،، وفى المنام أيضا رأيت الثور الآخر يطلع لى من تحت غطاء فراشى شاهراً قرنيه المسنونين، أتعجب لأنه طلع لنا مثل الجنى من تحت الأرض واحتل سريرى وسريره.

* * *

عند شاطئ النهر جلست أشاور نفسى فى الأمر، كان النهر حنوناً فأوحى لذاكرتى بكل المقدمات، تذكرت كيف

كنت أداعب الولد فيقاومنى دون أن يبدو عليه أنه قادر على المقاومة، وأنه فى أحد المرات ثنى إبهامى فكدت أتوجع لولا أننى تماسكت أمامها وأمامه، وأنه لوى ذراعى مرة فثبت على حالى ونظرت إليه باندهاش قبل أن يترك ذراعى الملوى، وأنه كان يطالبنى بأن أشترى له بعض الأدوات الرياضية التى يطلبها أمثاله لتقوية عضلاتهم التى تنمو،، ولأننى فى صدر شبابى كنت رياضيا معدوداً فقد أسعدنى أن يرث عنى تلك الصفة،، كنت أشجعه بالقول والفعل ليزود قوته، دفعت له اشتراك النادى الرياضى وأوصيت عليه المدرب العجوز، زودته بالملابس الرياضية اللازمة والحقائب وزودت مصروفه، ولابد أنه خلال تلك الفترة وضعنى فى عدة اختبارات ليتأكد من قوته التى تنمو ويتأكد أيضا من وهنى، وكانت هى تزهو به عندما تتحدث عنه إلى حد أنها كانت فى بعض الأحيان تبالغ وتجعلنى أشعر بشىء من الغيرة الممزوجة بالفرح ، لكننى كنت أوصيها بأن تهتم بتغذيته حتى ينشأ قويا وقادرا على مواجهة المستقبل الآتى فى علم الغيب

والذى لا يبدو مطمئنا بكل الحسابات، هكذا أذن أوحى لى النهر بكل ما كان وما تاه من ذاكرتى بسبب الوهن والشيخوخة المبكرة وهول المفاجأة.

قلت للنهر أن الوهن أصابنا وأننا صرنا نخاف أن نسمى الأشياء بأسمائها:

«كنا نسمى البحر والنهر واللهو والعبث، كنا نسمى الكفاف والجوع والثراء والبذخ، وكنا نسمى السفه والجهل المتحكم ، ونسمى الدم المسفوح الذى يلطخ جدران البنايات وينسكب على الأرض، وكنا نسمى عمى القلوب وخداع الأبصار وخرس الألسنة، كنا نسمى الفجر الآتى ونور الشمس وصحوة الندى، وكنا نسمى الطلوع والخروج والأحلام والرؤى، كان الخيال أيامها يرمح فى المدى ويتخطى كل الحواجز المعتمة، وكنا فى ذلك الزمان نفهم كل لغات الدنيا، حتى الألسنة الملوية التى كانت ترطن باللاوندى أو بالعبرى كنا نفهم مقاصدها حتى أحلامنا مبتورة، وأنا استخدم عكازى كى أتصالب وأقوم فلا أقوم، أظل فى نفس مكانى، فهل ترضى لى أن أتجمد

على طرف مجراك فى زمهرير البرد اللافح من «طوبة»، أو أنك تغرينى بأن أخلع كل ثيابى وأنزل إلى مياهك مثلما كنت أفعل فى مثل هذه الأيام وأتطهر ويطاوعنى عزمى؟ ربما تريد أن أسلم روحى لروحك لتريحنى من كل هذا السخف.

لكن بدا لى أن النهر أصابه خرس مباغت، أو أنه فى الحقيقة أصيب مثلى بالوهن وتصامم عن سماع الشكايات من أفواه البشر، ومن البعيد كنت أرى شبحاً يسعى ناحيتى لا هو بالتأكيد يخصها ولا هو بالتأكيد لا يخصها، كانت تلوِّح لى بكلتى يديها، وربما كانت تنادينى ولا أسمع، تتكشف لى رغم العينين الكليلتين الدامعتين ملامحها فتعيننى على القيام، أنهض وأقوم وأمشى ناحيتها، يشهدنى نهر الله وشمس الله التى طلعت فنورت وجهها وهى تبتسم وتحتوينى فى حضنها، تستعيدنى من الضياع وأستعيدها وسطح النهر يلمع.

إبداع إبريل ٩٤

الخروج من المدخل الأخضر

انخرست كل الأصوات من حولى وسيطر الصمت ، لم يعد هناك غير حفيف خطوات الرجل الطالعة ومن ورائه الرجلين التابعين يوشكان من فرط الأدب، يمتنعا عن التنفس بينما يصعدان وراءه بدرجتين، كانت الوجوه الواقفة قد التفتت إليه وهو طالع «بالبالطو» وزر طربوشه يتأرجح بحرية ويكيد الطربوشين التابعين بزريهما الموشكين على الثبات والسكون، ساعتها فكرت أن الطرابيش درجات، طربوش للسيد وطربوش للعبد وزر طربوش حر للسيد، وزر طربوش ذليل للعبد لا يميل براحته إلا لأخذ الأمر أو طلب الرضا من الأكابر، كنا فى ذلك الزمان ننقسم إلى نصفين غير متساويين نصف أعلى يملك كل شيء ويحق له عمل أى شىء ونصف آخر أدنى غير محسوب حسابه فى أى شىء، وكنت أثق تماما من مكانى فى النصف الأدنى دون أن أكون مستعدا

للموافقة على تلك القسمة غير العادلة.

عندما وصل الرجل إلى آخر الدرجات بدا لى سميناً إلى حد مفرط ، ربما بسبب المعطف السميك ومن تحته الكوفية الصوفية والسترة ومن تحتها الصديرى من نفس القماش، وكان كرشه يسبقه والعطر الذى لم أكن أعرف نوعه يفوح ويغزو الأنوف المهذبة وسط الوجوه المطرقة، بدا لى أنه خصنى بنظرة استهجان فأحنيت له رأسى بأدب ثم رفعتها، دخل هو من الباب المفتوح الفسيح ومن بعده رأيت الرجلين، أحدهما يحمل حقيبة تشبه تلك التى يحملها حلاق قريتنا، والآخر يحمل مجموعة من الملفات الورقية على صدره مسنودة بذراعين نحيلين، وعندما نظرت إلى قفاه اكتشفت أنه محلوق لتوه ربما، كان على كتفيه وظهر سترته الصفراء بقايا شعر مقصوص، وعلى القفا نفسه آثار «البودرة» التى استخدمها الحلاق بعد أن أنهى عمله، منفوضة بالفرشاة ربما، لكن آثارها ظاهرة وكأنها إعلان، كنت أرغب فى أن أسأل أى من الواقفين مثلى ينتظرون عن الكيفية التى سوف يسمحون لنا بها

للدخول ومقابلة الرجل المهم ، لكننى لشدة دهشتى وجدتهم جميعا وقد استداروا وأعطونى أقفيتهم وكأنما عن عمد، كانوا ينظرون إلى الجدران أو مسقط السلم أو حديد البوابة وكأنهم اتفقوا على خصامى وعزلى عنهم لأسباب لم أكن بقادر على اكتشافها، وإن كنت قد أرجعت الأمر إلى صغر سنى أو عدم إطراقى للرجل الكبير بنفس طريقتهم بينما كان يمر بنا، لكن الذى اكتشفته هو أنهم جميعا ودون استثناء كانوا قد قصوا شعر رؤوسهم قبل المجىء، مثلهم مثل حامل الملفات الذى أدهشنى، وربما شهدت نفس بقايا الشعر المقصوص العالق على الأكتاف وفوق الظهور لدى البعض منهم وربما نفس «البودرة» أو بقاياها التى ظلت بعد محاولات الحلاقين غير الجادة فى إزالتها، أقفية محلوقة لأناس كنت أراهم من وجوههم قبل دخول الرجل المهيب السمين صاحب العزة ، وعلى غير وعى منى وجدتنى أتحسس قفاى وأتذكر أننى كنت قد حلقته فى مساء اليوم السابق، ربما أتشابه معهم جميعا فى نظافة القفا وان اختلفت فى

إزالة آثار البودرة عليه، وربما بسبب هذا الفارق الهزيل شعرت أنهم ودون مقدمات قد خاصموني أو على الأقل بدا لى ذلك، كنت أضع الطربوش المكوى فـــوق رأسى وكانوا مثلى يضعون طرابيشهم الحمراء فوق الرؤوس وقد تدلت منها خيوط «الزرور» السوداء فى حالة سكون يوشك أن يصل إلى حد الثبات، تحسست زرى فاطمأن قلبى لأنه كان يتحرك بخفة وأدب، جاء رجل قصير من الداخل، صفق بيديه لنعيره انتباهنا فنظرنا نحوه وسمعناه وهو يقول بخفاء وكأنه يطردنا:

– الباشا ماعندوش وقت يقابل حد النهارده.

كأنهم كانوا ينتظرون تلك العبارة أو يتوقعونها، ذلك أن أيا منهم لم يعلق بالقبول أو الرفض ، تحركت أقدامهم دون ترتيب وبآلية، رأيتهم يهبطون درجات السلم وأياديهم تتـسـاند على سطح الدرابزين الخـشـبى، كنت أنظر ناحيتهم وكأننى مسئول عن اكتشاف الكيفية التى بها ينزلون، ربما كـانت قـدمـاى مـربوطتـين إلى الأرض أو ممسوكتين بمسامير يصعب الفكاك منها، لعلنى كنت قد

أصبت بشلل مؤقت فامتنعت عن الحركة من مكانى حتى رأيت ذلك الرجل القاعد على مقعده ذى العجلات الذى كان يقترب منى وهو يشير ناحيتى قبل أن يسألنى بود خالص:

– معاك كارت توصية ؟

* * *

– «تتناول إيده فى ايدك بأدب، توطى عليها تبوسها، لو حاول يسحبها ما تسيبهاش، واحسبها فى عقلك بقى، بوس إيد الراجل ده يعنى وظيفة فى زماننا الصعب والجيل المتعلم بشهايد لكن عطلان».

تذكرت كلمات الحاج إبراهيم التى كان قد قالها لى أكثر من مرة، ولولا الحياء لطلب منى أن أحلف أمامه على المصحف أننى سوف أفعل ما أوصانى بفعله ولولا صداقته القديمة لأبى ما كتب على الكارت الخاص به أمامى تلك العبارات التى حفظتها عن ظهر قلب قبل أن يدسه فى يدى وكأنه يمنحنى حق الحياة نفسه:

«معالى الباشا الكبير ...

دمت لنا وللفقراء سنداً... حامله ابن راجل مشلول ومحتاج، الولد حامل شهادة الحقوق، نسلمه لأياديك البيضاء التى يقبلها فيزداد شرفاً مثلما نفعل، وكلنا عبيد أوامرك».

كان الكارت فى المظروف الصغير أدفئ به صدرى أداريه عن نفسى مثل عورة مكشوفة، تحسسته وأومأت للرجل القاعد على مقعده ذى العجلات أشار إلى بطرف سبابته لأتبعه، وبخفة أدار نفسه وبسرعة قادنى إلى غرفة فسيحة مزحومة برجال من كل الأعمار، نظر إلى المقعد الوحيد الخالى فاتجهت نحوه وجلست.

كان السكرتير القصير غاضب الملامح يأتى وينادى على الاسم فيقوم صاحبه، يصلح من هندام نفسه بنفسه ويطفئ اللفافة إن كانت فى يده لفافة، يتبع السكرتير القصير بخطوات وئيدة وينتظر حتى يفتح له الباب الأخضر المنجد بجلد أخضر مسامير مذهبة ترسم على الجلد رسوما غامضة وزخارف مبهمة، وعندما ينسك الباب نسمع صوت الانغلاق الذى له صوت الأنين المكتوم

قبل الصمت، وبعد الفترات المتباعدة كان السكرتير يأتى وينادى على الاسم الجديد حتى أوشكت القاعة أن تصبح خالية، لم يكن قد تبقى غيرى وشابين فى مثل عمرى ناداهما معاً فلم يبق غيرى، حاولت أن أتذكر الكلمات التى أوصانى الحاج إبراهيم بأن أقولها للباشا أول ما أقف أمامه فلم أستطع، تاهت كلها من ذاكرتى، كأنها مكتوبة بقلم رصاص خفيف وفاتت على سطورها أستيكة نشطة، كانت على أحد الجدران ساعة معلقة لم أنتبه إليها إلا عندما سمعت دقاتها، كانت ورائى بالتحديد بندولها يتحرك ولها عقرب وحيد يحسب الدقائق بينما عقرب الساعات مفقود، ومع ذلك كنت أسمع صوتها بعد أن انتبهت إلى وجودها خلفى، لم أستطع أن أميز الوقت فى المكان الذى أسدلت على كل نوافذه ستائر ثقيلة وإن كانت أنوار النيون تضيؤه بشدة، لعلى جرؤت وقمت وقد صرت وحدى فى المكان، رأيت صورة الباشا فى «روب» المحاماة الأسود فوق ثيابه الثقيلة، ورأيته راكباً فرساً مقوس الظهر إلى أسفل ربما بسبب القلب الكبير الذى يحمله،

ورأيته بملابس «التشريفة» وقد فتل شاربه ورفعه إلى أعلى مثلما كان يبدو لنا شارب جلالة الملك فى صورته المطبوعة فى أوائل صفحات كتب القانون، كنت أشعر بالجوع والتعاسة، وكانت فى الحلق مرارة من نوع آخر لم أجربه قبلاً، لم تكن مرارة الفقر أو التعاسة الناتجة عن أزمة قاسية مر بها أب فسودت الدنيا فى وجه الابن، كانت مرارة من نوع آخر مختلف، ربما كان الخوف من العجز عن عرض قضيتى أمام الرجل يحاصرنى، لكننى كنت على استعداد للدفاع عن نفسى فى أول مرافعة منطوقة بأمل الحصول على عمل، ووسط حيرتى رأيت الرجل القاعد أمامى فوق الكرسى المتحرك، أسمعه يقول متعجلا وهو يمد يده ناحيتى:

– بقولك هات الكارت أدخله للباشا.

مددت يدى وأخرجت المظروف من جيبى وناولته للرجل، استدار ببراعة وخفة واختفى فى الدهليز البعيد بعدها بلحظات رأيت السكرتير القصير وهو يدخل، يشير إلىّ دون أن ينطق باسمى، يقودنى داخلا من الباب

الأخضر فأنقاد وراءه مسلما نفسى للدخول فى الاختبار الصعب، سمعت صوت إغلاق الباب ورائى أنينا مكتوماً أعلى وأزيد من كل المرات السابقة ربما بسبب شدة الاقتراب، رأيت الرجل المهيب جالساً وراء المكتب الكبير، يدور بالكرسى الدوار ويرد على الهاتف، لا ينظر ناحيتى وكأنما بشكل متعمد وبغضب يفوق غضب السكرتير أسمع صوته :

– يا باشا ... نتكلم بالليل... ألف سلامة...

ثم لنفسه:

– ملعون أبوك ابن كلب.

قال عبارته الأخيرة وعبرنى بنظرته، التفت إلى الرجلين بالطربوشين والسيدة بالقبعة المدورة وفوقها ريشة واقفة لم أر مثلها أبدا، وكلهم قعود بأدب أمامه وضع السماعة مكانها بشكل مسرحى وكأنما كان قد نساها أو تناساها عن عمد، ثم أشار إلى الهاتف نفسه وكأنه يشير إلى إنسان من لحم ودم:

– مخضوض وخايف خنزير غبى.. مع إن البلد فيها

ملك محبوب نفديه بدم الفؤاد..

أزاحني السكرتير من مكاني برفق لأقف إلى جوار رجلين رأيتهما من قبل في القاعة الخارجية فاندهشت لأنهما مازالا ينتظران وكانا من أوائل من دخل حجرة الباشا، جهزت نفسي لوقفة طويلة،، كان الرجل يتحدث بحماس والمرأة تكتفي بالنظر إليه بابتسامة ثابتة لا تتأثر أو تتبدل، وبدا لي أن الرجل أطلَّ ناحيتي إطلالة مباغتة وهو يتحدث عن حزب الأحرار غير الدستوريين والوفد النصاب والديوان الملكي الخربان، وأشياء أخرى بدت لي مقلوبة رأسا على عقب ولا توحي بأي انتماء أو احترام لشيء أو لجهة، وكأنما كانت كل الأحزاب عنده فاقدة لقيمتها وكل الزعامات أكاذيب وادعاءات، شيء يحير، ولم أكن أعرف على وجه الدقة إلى أي شيء يوجه كل هذا الغضب ولحساب من كان يهين كل الرجال الذين كنا نهتف بحياتهم لتأييدهم أو كنا نهتف بسقوطهم في مظاهرات الطلبة أيام دراستنا في الجامعة.

انفتح الباب الأخضر ودخل رجل مبروم الشارب بعناية

يضع منظارا طبيا على عينيه وطربوشا مكويا على رأسه، رأيته يتجه إلى الباشا مباشرة ينحنى ويأخذ يده اليمنى ويحوطها بين يديه قبل أن يقبلها عدة قبلات متتابعة وبصوت مسموع ثم ينحنى وهو يعيدها إلى مكانها المأمون على مسند الكرسى الدَّوار، وبظهره يخطو إلى الخلف عدة خطوات ودون أن يخطئ التقدير يصل إلى جوارى ويقف منتبها ويلهث، قبل أن يقول بارتياح من أدى واجبه على أكمل وجه :

– نقبل الأيادى يا باشا.

وبدا لى أن شارب الرجل المبروم قد انبرم أكثر وصار أكثر صلابة فى وقفته، كأنه بعد أن أدى واجبه قد سمح له بأن يشمخ ويعلو فوق كل الشوارب فى المكان، ولعلنى وأنا أتأمل صورة الرجل المهيب المعلقة فى بروازها الذهبى إلى جوار صورة الملك لعلنى توهمت أبى وقد أطل من وسط الإطار وسمعته وهو يهمس لى محذرا كما كان يفعل فى السابق:

– إوعاك توطيها لحد مهما ان كان يا ولد.

شعرت بنوع من الدفء، وبلفتة خاطفة رأيت الشارب المبروم وقد ارتخى، لعلنى قرأت فى عينيه شبح انكساره رغم البسمة البلهاء الثابتة على الشفتين المنفرجتين واللسان الظاهر المحبوس داخل الفم المفتوح ببلادة، كنت أرغب فى الإعلان عن وجودى رغم نسيانى لأى كلمات لائقة،، تنهدت فرمانى الرجل المهيب بنظرة عارضة فيها شىء ممن الاعتراض وهو ما زال مستمرا فى موضوع لا أعرف أوله من آخره :

– احنا يا هانم نعرف البلد دى كويس ... ونعرف يا حضرات الناس اللى تعرف مصلحتها كويس... فيه ف البلد دى ناس جاهزة تفدى المليك بدم الفؤاد.

كان يبدو لى مثل يوسف وهبى فى فيلم «سفير جهنم» وكان قد توقف ونظر ناحيتنا وكأنه يستكشف أثر خطبته الحماسية على كل واحد منا، ربما أكون قد كرهت المليك فى تلك اللحظات أكثر من كل الأوقات السابقة، وربما أكون قد عبرت عن ذلك بنظرة أو همسة مفلوتة أو بتكشيرة استهجان تلقائية، ذلك أن الرجل أشار ناحيتى

على وجه التحديد بسبابة يده اليمنى وكأنه يتهمنى بكل غضب :

– الجيل ده مافيش منه أمل.

قالها والتفت إلى السيدة ذات القبعة بريشة واقفة لم أر مثلها أبدا، مطَّ بوزه فى امتعاض وأشار إلى السكرتير القصير الغاضب ليهرول ناحيته، يسمع همساته ويهمس بحياء وخجل فى أذنه المدورة، ينظر المهيب ناحيتى ويهز رأسه يهش السكرتير عنه وكأنه ذبابة ثم يشير إلى بسبابته :

– تعالى .

أتقدم ناحيته خطوات فيشير مرة أخرى آمراً :

– لف .

ألف وأدخل المسافة الخالية بين الجدران وجانب المكتب، أصبح محاصراً بضرورة الكلام أو الفعل، كأننى عصفور ممسوك فى طرف فخ، أنظر إلى كفه المفرود على مسند الكرسى الدوار وأتذكر نصائح الحاج إبراهيم بتفاصيلها الدقيقة وكأننى تلميذ خائف من دخول

الامتحان إلى حد الرعب، فلما قرأ ورقة الأسئلة تدفقت في خياله كل إمكانيات الإجابة واحتار بأى الأسئلة يبدأ، كنت أشعر بقلق كف الرجل وهى تخبط خبطات متتابعة ومتباعدة، تعلو وتنخفض بحركات عصبية وكأنها تنبهنى إلى وجودها أو تساعدنى على عمل اللازم لإراحتها، ومن طرف الحجرة سمعت صوتا آمرا يأتى من بعيد دون أن أميز مصدره :

– سلم ع الباشا.

أمد يدى اليمنى ناحية الكف الغليظ فأراها وهى ترتفع إلى أعلى ممدودة فى وضع رأس مع الذراع وإن كانت محنية بميل إلى أسفل، كانت يدى فى يده تسلم وكنت انظر إلى عينيه الضيقتين فاكتشف ضيقهما أكثر، وكانت تقاطيعه المكتنزة لا تليق أبدا مع ضيق الحدقتين إلى حد مؤسف ، لعلنى لم أسيطر تماما على الكف المكفى على بطنه وذراعى مستقيم، كان الرجل يشعر أننى جئت لأعانده أمام جمع من الأتباع وذوى الحاجات ممن يطلبون وده، وعلى نحو خاطف سحب كفه وشمخ بأنفه

فى استعلاء يليق بأمير أو ملك حقيقى، سقطت الكف سقوطا ملحوظا على مسندا المقعد لكنه سيطر عليها بسرعة وهمس لى بأدب يليق برجل مهيب مثله بينما شاربه المبروم مرفوع لأعلى مثل جلالة الملك.

- إستنانى بره.

خرجت من نفس الباب الذى دخلت منه رغم وجود الباب الآخر الموارب بيد الرجل الجالس على مقعده، سمعت مع انفتاح الباب وانسكاكه صوت الأنين، وكانت صورة الباشا بملابس التشريفة وبالحجم الطبيعى تقف فى مواجهتى، غاضبة ومستهينة بأمرى، وكنت أنزل درجات السلم على مهل دون الاستناد إلى الدرابزين، أسمع صوت أبى يحدثنى عن ضرورة السعى من جديد وعدم الاستسلام،، ويوصينى بينما أنزل درجات السلم بألا أخيب رجاءه أو أن أكسر نفسى لمخلوق حتى ولو كان واحداً من أتباع الملك سكان القصور.

ابن خالتی «نون»

رأيتـه فـوق المقـعـد الدوار يتـأرجح مـسـتـمـتـعاً بتلك الهزهزات الخفيفة التى لابد أنها كانت تتأتى من تحريك مقعدته – التى صارت ممتلئة – عمدا فوق قاعدة الكرسى الطرية حسنة التنجيد تحت الجلد الطبيعى الناعم المدبوغ على أعلى مستويات الدباغة المعاصرة والذى انكست به القاعدة والمسند بشكله العريض المرتفع إلى ما يقرب من نصف ارتفاع الجدار، كان المسند بشكله البيضاوى طيعاً لحركة البدن سواء كان رجوعا إلى الوراء أو اعتدالاً على شكل زاوية قائمة، كان الرجل قد بدا لى على نحو غامض دائرياً فى كل شىء، الوجـــه المنتــفـخ والكرش البـــارز والقبضتين والكتفين إضافة إلى العينين المتواريتين خلف عدستين مدورتين فى إطار معدنى لامع فوق أنف مدورة وشفـتـين مكتنزتين حـمـراوين من أثر الشبـع بعـد جـوع بحسب ما يشاع عنه على ألسنة الكارهين.

كان مزهوا بنفسه أكثر من كل المرات السابقة، كأنه يريد أن يحصل على شهادتى المنطوقة بفخامة المكتب الفسيح الذى يحتوى على ترابيزة اجتماعات حولها دستة مقاعد فخمة وصالون فى زاوية، ناهيك عن اللوحات التى تعزلها ستارة من قطيفة لونها زهرى لم يكتمل إغلاقها بحيث كنت أرى جانباً من الحوض وفتحة الباب التى تكشف قاعدة المرحاض «وسيراميك» الأرضية والجدران، كنت أتأمل مكونات المكان على مهل عندما سألنى متباهيا:

– شفت؟

– جميل .. مبروك .

– توضيب المكتب وتجهيزه من أول وجديد كان شرطى الوحيد لقبول الوظيفة، الوزير شخصيا فوضنى فى اختيار كل شىء والإشراف على التنفيذ بنفسى، «ريحنى ع الآخر» .

– ألف مبروك.

* * *

شعرت بالخجل من نفسى لأننى طاوعتهم وحملت إليه رغباتهم فى أن يتكرم بزيارتنا فى «محلة مرحوم» التى انقطع عنها لسنوات اغترب فيها مع المرحوم والده فانقطعت عنا أخباره وكادت سيرته تنعدم، لولا أننا رأيناه ضيفاً على شاشة التلفاز، يحكى ذكرياته بينما كان يعيش طفلاً وصبياً فى قريتنا، وقبل أن يبدأ مرحلة الدراسة العلمية فى الجامعة برغم كل المصاعب، وكيف أنه باجتهاده توصل إلى ما توصل إليه من ذيوع الصيت والشهرة، تباهينا به وبحثنا مع كبار السن عن أصول القرابات التى تربطنا به لنكتشف أنه قريب لكل الناس فى «محلة مرحوم» لكن بدرجات متفاوتة، ورغم أنه كان فى حكم ابن خالتى إلا أنه أخجلنى عندما عرضت عليه فكرة زيارة بلدتنا ،نظر إلى متأملا وقال بعد تردد وبنبرة رافضة:

– واحد غيرى فى مكانى ومكانتى كان ممكن يقول الناس دى بتنسى، تعرف إنه محدش منكم كلف خاطره وزارنا زمان أو حاول يساعدنا.. لكن معلهش.. برضه

انتم أهلى وناسى ولو أن ماليش فى بلدكم أرض ولا دار أنزل فيها، لو فكرت يوم أزوركم فى محلة مرحوم زى ما بتقول.

شعرت بجفاف الحلق وسألت نفسى كيف قضيت كل هذا الوقت فى مكتبه دون أن يطلب لى مشروباً أو كوباً من ماء، ولابد أنه فسر سكوتى على أنه عجز عن الاعتذار عن فكرة حسبتها سوف تسعده، فإذا بها تعيده إلى مرحلة العوز التى أوصلتهم إلى حد أنهم دفنوا المرحوم والده فى مدافن الصدقة قرب قلعة صلاح الدين.

* * *

وفى التلفاز رأيناه مرة أخرى وسمعناه يعد ببناء مسجد كبير على حساب الأوقاف ومدرسة إعدادية على حساب التربية والتعليم ومستشفى شامل على حساب الصحة فى قريتنا، عايشنا فرحة الموعودين بحل كل مشكلاتهم بواسطة قريبنا الذى علا نجمه وصارت له كلمة مسموعة فى الحكومة، ومرة أخرى كلفونى بزيارته فى القاهرة لأشكره على اهتمامه بأمورنا على هذا النحو

الذى يؤكد أصالته وعدم خيانته لعيش قريتنا وملحها ، وعندما حاولت الاعتذار لهم ذكرونى بأننى أقرب أقاربه فى البلد، وأننى كنت زميله طوال سنوات الدراسة الابتدائية، وكيف أن هذه السنوات من الزمالة بالإضافة إلى القرابة أمران لا يستهان بهما تحت أى ظرف، وأنا قلت لنفسى قبل السفر «توكل على الله ياولد وسافر له واشكره مقدما على خدماته»، وقلت أيضا لنفسى «طال التباعد بينكما أو قصرت المسافات فهو ابن خالتك أو التى هى فى حكم خالتك فاغفر له جفاف حلقك فى الزيارة السابقة، فمن المحتمل أن تكون المسألة مجرد سهو غير مقصود منه فلا تعمل من حبة السمسم قبة وتحتها ولى بمقام كبير مثل مقام السيد البدوى واذهب لتشكره فالشكر واجب، على هذا النحو كنت أفكر بينما أركب التاكسى وآمر سائقه بأن يتجه إلى مكتب قريبنا الكائن فى حى الزمالك، قابلنى بترحاب وألفة وأمر سكرتيرته بأن تمنع أى زائر أو مواطن من دخول المكتب وألا تحول إليه أى مكالمة تليفونية، فاستجابت لأمره بكل

أدب وهى تخرج وتشد وراءها باب الحجرة بينما جذبنى هو وأجلسنى إلى جواره فوق الكنبة العريضة فى زاوية الصالون المفتخر وهو يسألنى عن أحوال الناس فى قريتنا، فرحت أحدثه بحماس عن فرحتهم الزائدة لأنه يذكرهم ويهتم بشئونهم رغم بعد المسافة بينه وبينهم ورغم علو مقامه وزيادة علمه، كان يهز رأسه مشجعاً لأستمر فى الحكى ووصف الأحوال، وبين فترة وأخرى كان يربت على كتفى مشجعاً ومتودداً فيخجلنى بتواضعه، ولولا شعورى بجفاف الحلق ما توقفت عن الكلام، تأملنى هو خلال لحظات الصمت مبتسماً ثم فرك يديه وسألنى بود :

– محتاج أى حاجة؟ أى مساعدة أقدر أقدمها لك ؟ فى أى حتة .. هه ؟

شكرته بحرارة على عرضه الكريم وأفهمته أننى أدخره للأيام الصعبة إذا واجهتنى، ورغم ازدياد جفاف حلقى ولسانى فقد دعوت له بعلو المقام ودوام الرقى ، وبكل الخجل استأذنته مودعاً لألحق قطار الثالثة والثلث فوافقنى وخرجت من مكتبه متهالكاً من شدة الظمأ.

* * *

انضمت الوزارتان فى وزارة واحدة فصار قريبى ابن محلة مرحوم وكيلا أولا للوزارة التى أتبعها بالإضافة إلى الوزارة التى كان يتبعها، زغرد قلبى لأننا تجمعنا - فى ظل التعديل الجديد - فى نفس الوزارة وتحت رئاسة نفس الوزير، حدثت مديرنا العام عندما استدعانى يستفسر عن شخصية قريبى «وبلدياتى» الدكتور«عين» فحدثته بكل الخير عنه متباهيا به وذاكرا كل مزاياه وكيف أنه شديد الألفة والتواضع والاستعداد للمساعدة، طمأنت قلب مديرنا العام على مستقبله الوظيفى فدعا للدكتور «عين» بطول العمر ودوام الارتقاء ولا أدرى إن كان صادقا فى دعواته ونواياه تجاه قريبى أو أنه تظاهر بتصديق قرابتى للدكتور «عين» وإن كانت الشكوك تحوم فى دماغه والحذر يدعوه لمجاراتى والتمهل دون إعلان رأيه الحقيقى فى مجرد لقاء عابر مع موظف يتبعه.

فى المساء ركبنى وسواس مسلم ومسالم جعل يزيِّن لى ضرورة السفر إليه وزيارته فى مكتبه الفخم لتقديم

واجب التهنئة، وفى الصباح ركبت أول قطار وتوجهت إليه وأنا أفكر فى أرق عبارات التهانى التى تليق بالمناسبة، لكنه عندما سمحت سكرتيرته لى كعادتها بالدخول تنفيذاً لأوامره السابقة بخصوصى وجدته منهمكاً فى تقليب الأوراق، رآنى فمد يده من وراء المكتب فطلت أطراف أصابعه وصافحته نصف مصافحة ، أشار هو لى بأن أجلس فوق واحد من الكرسيين الكائنين قبالته والمكتب مباشرة، لابد أن وقتا طويلا كان قد انقضى لا أسمع خلاله سوى أصوات خشخشة الأوراق التى كان يقلبها متداخلاً مع همهمات جهاز التكييف الواهية، قطع الصمت محدثاً نفسه أكثر منه يحادثنى قائلا :

- كله على دماغى، بلاوى الوزارتين كله على دماغى.

وبدا لى أن الفرصة قد حانت لأقول له ما سبق أن راجعته وأحسنت اختياره وحفظته بينى وبين نفسى من عبارات التهنئة بزيادة سلطاته وصلاحياته ، فاندفعت بكل الحماس أهنئ وأبارك وأتمنى له العمر المديد والصحة الجديد، لكنه كان يتأملنى بفتور وبلادة وعلى وجهه

تكشيرة طارئة لم أعهدها أو أشهدها فوق ملامحه قبلا، لعلني تلعثمت في العبارات الأخيرة، وربما نسيت عبارة أو عبارتين رائعتين بحساباتي، لكنني عندما انتهيت شعرت بجفاف الحلق وبشيء من المرارة فوق لساني وبلعومي وفم معدتي، وقال هو وكأنه يتحلل من وعد كان قد قطعه على نفسه في زمن سابق مقاطعا:

– طيب.. طيب .. بس ياريت المرة الجاية تطلب السكرتيرة في التليفون، تطلب منها تحدد لك ميعاد، آه، كنت عايز أقول لك إيه كمان؟ نسيت. استنى لما افتكر.

قال العبارة الأخيرة بشيء من الود والألفة وكأنه يخفف وقع المقاطع الجافة التي بدأ بها عبارته الأولى وكأنه تنبه لنفسه، شعرت بقطرات من العرق تتساقط من فوق جبهتي على المائدة الصغيرة الكائنة أمام مكتبه العريض مباشرة بين مقعدين أجلس على أحدهما، صحيح أنني حاولت معالجة العرق بالمناديل الورقية لكن بعض القطرات كانت قد تسللت إلى العينين فأشعرتني بالحرقة والوجع، وكانت هناك في الوراء قطرات من العرق

تسرى متلاحقة عبر مجرى سلسلة ظهرى الذى كان فى مواجهة جهاز التكييف مباشرة مما جعلنى محصورا بالرغبة فى العطس دون عطس، كأننى لو عطست فسوف أعلن عن وجودى فى المكان على غير إرادة منى، ولأنه كان قد استمهلنى بحجة أنه سوف يقول لى شيئا ادعى أنه نساه وسوف يتذكره فقد كنت أنتظر، كفت أنامله عن العبث فى الأوراق التى كانت بين يديه والتفت ناحيتى متسائلا وكأنه اكتشف وجودى فجأة فى المكان :

– انت عايز حاجة منى دى الوقت ؟

– لا .

قلتها قاطعة وباترة، وأنا أقوم من فوق المقعد راغباً فى الانطلاق ومتباعداً عن المكان الذى غمرنى فيه عرق الخجل وانحرمت فيه من الهواء الطبيعى الذى يظهر البرد اللابد فى كل أنحاء البدن والذى يساعد على العطس المكتوم.

* * *

مرت السنوات متثاقلة على قريتنا وصارت سيرته رمزاً

لكل من وعد الناس بشىء ولم ينفذ وعده شأن بعض نواب دائرتنا القدامى الذين كانوا يأتون ويتقربون للناس من أجل الحصول على أصواتهم فى الانتخابات وعندما يحصلون عليها يختفون ثم ينشغلون بأمورهم الأكثر جدوى، فينساهم الناس وينسوا وعودهم ويتندرون على كل الوعود الانتخابية السالفة، لكن الدكتور «عين» لم يكن نائبا سابقا فى برلمان يمكن أن ننساه، ربما لأنه كان يطالعنا على فترات متقاربة على شاشة التلفاز بوجهه الذى صار مثل وجه القمر فى استدارته والذى كان يتحدث بنفس لهجة قريتنا لا يبدلها، ويعلن دائماً عن استعداده لتقديم أى خدمات لكل ناسها، وفى كل مرة كان البعض يسأل صورته الملونة على الشاشة الصغيرة عن المسجد الذى وعدنا أن تبنيه الأوقاف والمدرسة الإعدادية المشتركة التى وعدنا أن تبنيها وزارة التعليم والمستشفى الذى انتظرنا وزير الصحة ليأتى ويضع بيديه حجر أساسه المتين.

* * *

كتبت استقالتى وطلبت مقابلته فحددت لى السكرتيرة موعداً، شعرت على نحو غامض أنه كان يتوقع منى طلب المقابلة، ربما لأنه كان قد تخطانى عامداً فى حركة الترقيات الأخيرة، ربما لأنه أراد أن يرانى متظلما له وشاكيا يطلب الإنصاف والرحمة ليرينى كيف أنه بتأشيرة من قلمه يستطيع أن يرفع من شأنى أو يقلل من قدرى، ولأن رسالته الأخيرة وصلتنى على هذا النحو الفاضح فقد كان لابد أن ألتقى به لآخر مرة لأرد عليه بما هو لائق.

كان يدور بكرسيه الدوار حول محوره المخفى وأتأمله فى صمت، يزود حركته فأراه من عشرات الزوايا، زوايا متداخلة ومتكاثرة تبدأ من الصدغ الأيسر المسنود بحيز القفا من الوراء، ثم متكورا وملفوفاً مع حركة الكرسى الدوار حتى تصل إلى الصدغ الأيمن حول المحور المخفى، كنت أشهد الملامح وهى تتبدل وتتغير فى اللحظة الواحدة عشرات المرات، كان يلقى بثقله إلى الوراء مطمئنا إلى ليونة المسند واستجابته الفورية لأقل ضغط ، ولابد أنه كان يعايش من داخله زهواً لا يدانيه أى زهو،

وكنت أقول لنفسى «هاهو رجل مستدير فى كل شىء ويصعب الإمساك به مثل كرة الزئبق».

كرهت حقى الضائع لأنه ضاع عنده وبفعله ، فهل جرب أحدكم أن يكره حقا ظاهراً ضاع له عند قريب أو صديق قديم كانت له فى الذاكرة مكانة عالية؟ لابد أنه قد حدث لأى منكم مثل هذا الأمر، ولست أدرى إن كان ذلك قد حدث بمساعدة الكرسى الدوار المستورد والمعمول خصيصاً من أجل هواة الهزهزة والتأرجح والدوران حول المحور المخفى؟ وكيف يتحول الرجل المستقيم فى كل شىء إلى رجل مستدير مثل كرة الزئبق ؟

كانت الأسئلة كثيرة ومتشابكة وشائكة وكنت قد أخرجت الاستقالة من جيبى وفردتها أمامه على المكتب، فراح يقرأ سطورها دون أى انفعال أو تأثر وكأنه كان يشاركنى بكتابتها أو يملينى سطورها، لعله ارتاح واطمئن بينما يوقع عليها بالموافقة، وأنا من ناحيتى شعرت بالخلاص.

الخط الأخير فى لوحة الذكريات

جلس على طرف أول مقعد صادفه، بدا لى ضئيلا وسط مقعد الصالون الكبير، تلاحقت أنفاسه فى سرعة، كان بالقطع مرهقا أكثر من أى وقت مضى ولا أعرف الأسباب، شعرت نحوه بنوع من الإشفاق، جلست صامتا فى المقعد المقابل، تململ هو فى جلسته مرارا وكأنه يرغب فى كل مرة أن يعتذر عن صمته الذى طال، دارت عيناه فى أركان الغرفة وتشاغل بالنظر إلى اللوحات المعلقة على الجدران، انتقلت عيناه المرتبكتان بين اللوحات دون فحص حقيقى، ثم تركزتا على صورة أمى التذكارية، تفحصها بتركيز أكثر وأكثر وكأنه يراها لأول مرة، امتد عنقه النحيل إلى الأمام وحدق فى خطوط الصورة، قام من مقعده فى خفة ثم اقترب من الصورة قبل أن يهمس محدثا نفسه دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات ناحيتى:

– مرسومة بشكل جيد.

شاركته النظر إلى الصورة التى كان قد رسمها هو نفسه نقلا عن صورة صغيرة كنت أحتفظ بها لأمى ضمن مجموعة من الصور التذكارية، يومها لم أكن أصدق أنه سوف يفلح فى تكبيرها بهذه الدقة، ذلك أن وجه أمى كان دقيقا وسط مجموعة كبيرة من الوجوه التى تحتل أركان الصورة ، زفر هو ثم عاد خطوتين إلى الخلف بينما ظل يتابع النظر إلى الصورة ، كان يبدو مشغولا بفكرة طارئة، كان المقعد خلفه بخطوة أو خطوتين فخطاهما متراجعا بينما ينظر بطرف عينه اليسرى وكأنما ليحسن تحسس مكانه قبل أن يجلس، قال فى شىء من المرارة:

– كل الأمهات تتشابه، ربما تختلف الملامح إنما هناك دائما شىء مشترك ، شىء غامض وخف لا أستطيع وصفه بالكلمات، إننى أحدثك عن الصور التذكارية للأمهات، تلك الصور التى أقوم بتكبيرها منذ سنوات ودون مقابل إلا محاولة الإجابة عن سؤال مازال يحيرنى.

شعرت بالقلق ولم أستطع إن أعلق بشىء مناسب على عباراته التى قالها، همهمت وحولت نظراتى نحو صورة

أمى المرسومة بالحجم الطبيعى.

استرجعت الأيام الأخيرة التى قاست فيها من مرضها الذى أنهك قواها وجعلها عاجزة عن الحركة فى أركان البيت، كنا نلتف حولها ونتسابق لتنفيذ رغباتها البسيطة، وكانت هى تنظر إلينا بحب وتتابع حركاتنا فى امتنان وتوصينا رعاية أختى الصغيرة، كنا نطلب منها أن تكف عن تكرار مثل هذه الوصايا التى تتضمن احتمال موتها، فكانت تبتسم فى وهن وتهز رأسها فى يأس من يدرك أن النهاية تقترب، تطالبنا بتركها وحيدة لترتاح فنخرج من حجرتها ونتبادل المخاوف من احتمال موتها بينما هى نائمة ثم نحاول أن ننفى خطورة حالتها لنزرع فى قلوبنا شىء من الأمل فى بقائها بيننا فترة أخرى من الزمان.

سمعت صوته يدّوى فى جنبات الحجرة وكأنما كان ينبهنى إلى وجوده الذى أوشكت على نسيانه تماما، سألت نفسى إن كان من الممكن أن أسأله عما إذا كان قد بدأ فى التوجه بحديثه إلى منذ فترة طويلة، وقلت لنفسى أن الاكتفاء بسماع ما سوف أسمعه منه أفضل،

كانت شرايين عنقه نافرة ووجهه محتقن بالدماء بينما يقول بحماس :

– لقد قمت برسم عشرات الصور التذكارية للأمهات، لكننى لم أجرؤ على رسم صورة لأمى، سنوات طويلة وأنا أرسم صور الأمهات، أمهات الآخرين وأتخوف من فكرة الإقدام على رسم صورة لأمى، ربما كنت أخشى الفشل فى رسمها عما ينبغى وأتمنى أو هو نوع من رفض الاعتراف بموتها حتى اليوم.

كنت قد اعتدت على سماعه دون تعليق غير تلك الهمهمات الغامضة، أما هو فكان يسترسل فى أحاديثه بغير انقطاع مكتفيا بهمهماتى وكأنها منطوق يشجعه على الاستمرار فى أحاديثه ويدفعه دفعا للبوح بغير حرج بكل ما كان يعن له من أفكار أو تدور فى دماغه من تساؤلات تخصه أكثر مما تخص من يستمع إليه مثلى، وحين ساد الصمت بيننا رأيت أنامله وهى تتشابك وتنفرج، تتلاحم فى عنف ثم تتباعد وهزهزات الساقين لا تتباطأ، قلقا على عادته فى كل زيارة ومشحونا بأفكاره

التى لا يخجل من البوح بها وإن كان يتخير الكلمات المناسبة فيطول سكوته فى بعض الحالات، قلت أشجعه على الكلام:

– تبدو قلقا.

قال هو فى حماس وكأننى فتحت له بعبارتى بابا كان يحسبه مسكوكا.

– فعلا ، كأننى اكتشفت الآن أمرا ظل خفيا على لسنوات دون أن أدرك ذلك قبــلا، إن نقل تلك النظرة المودعة للحياة والتى تسع استسلاما ووداعة من العينين المدركتين على نحو غامض هو جوهر المسألة، تلك النظرة التى تعرف على نحو غامض أن تلك اللقطة سوف تتحول فى يوم ما إلى مجرد تذكار مرسوم ومعلق فى حجرة صالون للذكرى بعد الرحيل، هل تفهمنى؟

طرح سؤاله الأخير وعاود الاقتراب من الصورة وثبت عليها نظراته، وبغير إرادة منى وجدتنى أشاركه التأمل بإمعان، خيِّل إلىَّ بالفعل أننى رأيت فى عينيها تلك النظرة المودِّعة للحياة، ومن بعيد سمعت صوته المتحمس:

- إننى أرغب الآن فى أن أشـد على يدك بكل قـوة، أشد على يدك بقوة الكشف الذى توصلت إليه اليوم، إننى أحترم صمتك أكثر مما تتصور، الفنان الحقيقى يحتاج أحيانا إلى من يحسن الاستماع إليه، دعك من كل الحذلقات والاختلافات التى لا توصِّل إلى شىء جوهرى ومثمر، لقد قررت أن أبدا فى رسم صورة أمى من الذاكرة، سأحاول أن أنقل ابتسامتها الهادئة التى كانت تتسلل إلى داخل من يراها، فتبعث فيه ارتياحا يغسله من الهموم، سوف أحاول أن أرسم تلك النظرة المودعة للحياة بينما كانت مازالت تمارس الحياة، لابد أننى تأخرت أكثر مما ينبغى.

قام من مقعده ودار حول نفسه عدة مرات وفى أركان الحجرة، بدا لى حائرا بين الرغبة فى البقاء معى وتركى وحيدا، لم أتدخل بأى همسة قائلا لنفسى أنه من اللائق أن أتركه ليحسم أمر نفسه بنفسه، ومن ناحيتى كنت أشعر بنوع من الرضى عن نفسى لأننى جعلته راضيا عن نفسه، كدت أسأله عن سر قوته عندما يتحمس على

هذا النحو ويشد على يدى فى صلابة وقوة لا أتوقعها من إنسان ضئيل البدن مثله، كنت فى كل لقاء أتوقع منه ذلك وأعدُّ نفس الاحتمال فى نهاية كل زيارة، كانت قبضته تحيرنى وتخوفنى، وقدرتى على الاستفسار تذوب فى كل مرة فلا أسأل، كان هو ما زال يتحرك فى أركان الغرفة متوترا وقلقا، وكنت من ناحيتى أتخوف أن أشعره بوجودى أو أن أنطق بعبارة يفهم منها أننى أعددت نفسى للحظة الوداع، جعلت أتابع خطواته وأطل إلى الصورة التذكارية متشاغلا بها عنه لحظة الالتفات ناحيتى، قال هو بينما يتجه نحو باب الصالون معتذرا:

– لقد تأخرت أكثر مما ينبغى فى رسم صورتها، لقد تأخرت بالفعل فى رسم صورتها أكثر مما ينبغى، ولكن من يدرى، لعلنى كنت أتدرب طوال تلك السنوات دون أن أعرف أن الخطوط الرئيسية لصورتها تتضح فى خيالى أكثر وأكثر بمرور الوقت على العكس مما هو شائع من احتمال نسيان الملامح بمرور الوقت أكثر، إن ملامحها تتضح الآن وتتجسد فى خيالى بشكل مذهل، دعنى

أودعك وأشد على يدك بكل قوة لأنك كنت السبب.

امتدت يده نحوى فنسيت حذرى من صلابة قبضته وناولته يدى وقد تراخت أطراف أصابعى، شدّ هو عليها بقوة وعنف أكثر من كل المرات السابق، انتبهت، كانت يدى فى قبضته كطائر عاجز عن الحركة أو الانفلات، وكانت فى حلقى صرخة ألم مكتومة، جاهدت بعسر أن أمنعها من الانطلاق، وكان هو يبتسم، مشرق الوجه حالما بالتحقق، وعندما ترك يدى أحسست بأننى تحررت، خرج من باب الشقة فتهاويت على أول مقعد صادفنى فى الصالون، جعلت أتحسس اليد التى اعتصرها باليد اليسرى فى رفق وكأننى أعتذر بدلا عنه، وبدا لى أن وجه أمى يبتسم فى سخرية أو إشفاق وهو يتابع حركاتى فى استهجانٍ مستنكر ويدعونى للقيام.

الحياة سبتمبر ٩٣

الكلام الساكت

وفى صباى المبكر، رأيتنى فى المنام أفقد البصر وأعيش أعمى، كرهت الدنيا وتنميت الموت لكن العمر إمتد بى فى المنام وشاب شعرى، انحنى عودى وصرت أتوكأ على عكاز، كان الزمن فى المنام ينقضى بسرعة فائقة، فرأيتنى جداً لعشرات الأحفاد الذين لم ألتق بآبائهم رغم أنهم أولادى، كان الأحفاد يتناوبون بانتظام لقيادتى من عند باب دارى لتوصيلى إلى الزاوية حيث أتوضأ وأصلى قبل أن يعيدنى من أخذنى منهم إلى دارى، وقبل أن أقعد أسمع صوت المؤذن ينادى للصلاة التالية فيستعجلنى حفيد آخر لأقم ويقتادنى إلى نفس الزاوية قبل إقامة الصلاة، قبل أن أنقض وضوئى، أتوكأ على العصا وكتف الحفيد الآخر وأذهب، أصلى ثم يعيدنى نفس الحفيد إلى الدار، لكننى قبل أن أخلع مداسى أسمع صوت المؤذن ينادى للصلاة والحفيد الذى حل عليه الدور يستعجلنى

بصوته فأقوم وأتساند عليه ليقتادنى مثل من سبقوه إلى نفس الزاوية، وعلى هذا النحو كنت أؤدى الصلوات فى أوقاتها بفضل الأحفاد البررة الذين لم أنشغل بحفظ اسمائهم أبدا.

قلت لأمى تفاصيل ما كنت أشهده كل ليلة فى مناماتى فزغردت تعبيرا عن فرحتها بخلفتى وقالت كلاما كثيرا لا أذكر منه إلا بعض العبارات: «قلبى وربى راضيين عليك كنت فى ختام كل صلاة أخلع رأسى وادعو لك فاستجاب الرب لدعواتى، أبشر يا ولدى لأن المولى سوف ينعم عليك بالبصر الحديد فتتمكن من رؤية الأشياء البعيدة البعيدة وكأنها بجوارك، بل إنك سوف ترى فى حلكة الظلام وعتمة الليل بمثل ما ترى فى عز الظهيرة» أذكر أنها نبهتنى بعدم البوح لأى انسان وقت أن تتحقق النبؤة ويهبنى الله نعمة البصر الحديد حتى لا تزول النعمة، وعدتها بالكتمان وكتمت الأمر فى نفسى لأحمى نفسى من عيون الحاسدين، لكننى لا أذكر على وجه الدقة متى بدأت أنعم بالبصر الحديد، ربما حدث الأمر بهوادة وبطء

بحيث لم ألحظ التغير إلا عندما كنت قد احسست باكتمال المعجزة، صرت أرى من البعيد البعيد ما لم يخطر على خيال نفر من ناس كفرنا، مرة رأيت خالى الكبير فى سوق البندر واقف تحت الجميزة العجوز الكائنة عند مدخل كفرنا، رأيته يركب الحمار ويخرج من السوق وقد وضع أمامه على ظهر الحمار بالعرض عنزة لون شعرها بنى مائل إلى السواد وحول عينيها دائرتان من شعر أبيض أوسع بنصف سنتى متر من اتساع العينين، أسرعت إلى أمى أخبرها لما رأيت، فكذبتنى رغم أنها هى التى كانت قد بشرتنى بالنظر الحديد، لكنه بعد ساعة أو تزيد جاء خالى حاملا نفس العنزة التى كنت قد رأيتها عند مدخل سوق البندر، جاء ووقف عند باب دارنا وتبادلت معه حوارا عن ثمن العنزة التى اشتراها وسألته إن كان قد خرج بها من بوابة السوق منذ ساعة زمن فأجابها بالإيجاب مدهوشا، ثم أنه زغد الحمار فى بطنه بالمداسين والكعبين آمرا إياه أن يسرع بالابتعاد عن دارنا حتى لا يصيبه خبل من كثرة الأسئلة التى تحتوى

على الإجابة الكاشفة على عكس ما كانت أمى تفعل فى السابق فى الأمور التى لا تخصها، التفتت أمى ناحيتى وصارت تحدث نفسها وتحدثنى بينما تسحبنى إلى وسط الدار وقد تأكدت أننا صرنا وحيدين لا ثالث لنا إلا الله: «سبحانك يارب تمنح سرك لأضعف خلقك، سامحنى يارب سامحنى وقدرنى أن أقدر عليه ليصون السر ولا يبوح لمخلوق على سطح الأرض» بمثل هذا الكلام كانت تتحدث وقد خلعت طرحتها ومنديل رأسها الزهرى وهى ترفع كلتا يديها وتنظر فى اتجاه السماء، وأنا انظر معها فلا أرى غير الزرقة التى لا يحدها حد برغم ما تأكد لى ساعتها من امتلاكى للبصر الحديد.

لا أعرف كيف فاتت سنوات عمرى وقد رأيت خلالها ما لم يره فى كفرنا النعسان بشر، أو طاف فى خيال بنى آدم، شفت وما بحت، حتى بعد أن بلغت أمى من الكبر عتيا ثم ماتت وما عاد لى ونيس أو جليس أفضفض معه بشىء مما أراه وأشهده فلا يحس به غيرى، لعلنى فى تلك الأيام فكرت جديا فى كتابة السر على الورق قبل أن

اخبئه في الخزانة المسكوكة دوما لأرتاح، ربما لأن البوح على الورق أخف من البوح باللسان، هكذا كنت أظن في أول الأمر حتى اكتشفت أن البوح بأى الأشكال بوح في نهاية الأمر لأنه سوف يكشف ما اكتشفته بعدما يحين الأجل المحتوم، ذلك أنني بعدما كتبت سرى واستشعرت بعض الراحة على نحو غامض، كنت أفقد قدرتي المتميزة بالنظر الحديد، كأنني كنت أرمح وحدى منذ تحققت نبوءة أمي واستطاعت إقناعي بضرورة صيانة السر، كأنني كنت أرمح وحدى وقد حملت ثقلا لاكنت قادرا على حمله ولا كنت قادرا على التخلص منه إلا بعد أن أبوح به على أي نحو وقد فعلت وبحت للأوراق المسكوك عليها في الخزانة.

* * *

في زمن آخر رأيتني في المنام وقد أصابني صمم وانطرشت، ما عدت أسمع أى الأصوات، أفزعني أن أرى نظرات الفزع في عيون أولادى وأحفادى، لعلني صرخت أولا بصوت ثم انكتم الصوت فما عدت بقادر على الأنين

أو التعبير عن المواجع حتى ولو على طريقة الصم والبكم، كنت فى المنام أرى الأشياء أكثر وضوحا، أستطيع تفسيرها للناس دون أن أتكلم، أبادلهم تحريك الشفاة بتحريك الشفاة والغمز بالغمز، ورفع الحواجب أيضا برفع الحواجب وطرقعة الأصابع فى الهواء بطرقعات الأصابع فى الهواء لكن دون قدرة على التواصل معهم رغم كل الجهد المبذول منهم ومنى، كنت فى المنام الصعب أشعر أننى انعزلت عنهم وانعزلوا عنى بفعل فاعل خبيث أو مجموعة من الفعلة الخبثاء.

فى الصباح حدثت زوجتى بتفاصيل الكابوس الذى كبس على أنفاسى وأوشك أن يزهق روحى خلال الليل، لكن زوجتى فاجأتنى بزغاريد مجلجلة تعبيرا عن فرحتها وهمست فى أذنى قائلة :

«أوصيك بالكتمان، أوصيك بالكتمان، سوف تسمع دبة النملة وتحس بالريح قبل أن تنطلق أو تهب من البعيد، وربما، أقول ربما وهبك الله لسانا فصيحا يقدر على نطق الكلام الصحيح فى مستقبل الأيام، لكنه يلزم أن تعرف

أن لسانك هو حصانك إن صنته صانك، وإياك إياك من الاندفاع وراء جرس الكلمات مثلما يفعل البعض من أنصاف الشعراء الحمقى، وحذار حذار من أن ترمى روحك فى سكة الهلاك، علتك الكلام ودواؤك السكوت والحذر من الحبيب الحبيب قبل العدو».

بمرور الأيام بدا لى، أن قدرتى على السمع زادت، كنت أستطيع أن أتسمع أصوات أنياب الأسماك الكبيرة وهى تنهش لحوم الأسماك الصغيرة فأتعذب وكنت أتوهم أننى قادر على سماع أصوات من يتآمرون على الوطن من خارج حدود الوطن، أتوجع وأظل وحيدا أكابد الوجع، أسهر بينما ترقد زوجتى والأولاد بينما أدرب لسانى على الكلام اللائق دون تفاصح لأنطق أما من صاروا رؤسائى فى العمل أو رؤساء رؤسائى، أتذكر هؤلاء الانصاف ممن يدسون فى آذانهم عبارات المديح المتملق وينفخون أوداجهم بكل أشكال الادعاء ، لكننى فى الصباح كنت أنسى وأندفع، أتفاصح وأتخطى حدودى المسموح بها، أراهم على حقيقتهم ويتضح لى أن أكثرهم صعد على

سلم السادة دون مؤهلات أو مسوغات كافية، كنت أستشعر الخطر يحوطنى من كل جانب بينما أنطق بالحقائق، يتزايد أنصارى من صغار الناس ويتزايد أعدائى من الأكابر وأنصاف الأكابر وأرباعهم، أرجع من الشغل وقد خصموا من راتبى يوما أو نصف يوم، فتتشكى زوجتى لأمها بالهاتف من قسمتها التى رمتها لأكون أنا من نصيبها، أحاول تهدئتها إذا ثارت فى وجهى وأعدها بان أحاول سد فمى فى اللحظات الحرجة لأمنعه من الكلام فى مواجهة الاكابر فى الصباح التالى، لكننى فى كل الحالات كنت أفشل فى إقناعها، كنت لا أستطيع أن امنع نفسى من الاحتجاج على تزايد الأسعار وزحام المواصلات وضآلة الرواتب وفساد الذمم وسيادة الكسل وبلادة المشاعر، وكان من المعتاد أن أتعارك وأصاب فى المعارك بإصابات متنوعة، ولابد أننى لاحظت بنفسى خلال تلك الفترة زيادة قدرتى على التعليق والتدخل بالكلام الساخر على كل شىء يستحق التعليق أو التدخل سواء كان يخصنى أو لا يخصنى، وكانت ادعاءاتى بأن

كل ما يحيطنى وما أراه يهمنى بدرجات متفاوتة هى السبب الذى يدعونى الى التدخل أو الميل إلى تصديق كل ما كنت أسمعه من وشايات وكأنها صوت هاتف خفى يأتى من البعيد البعيد الذى لا يقدر غيرى على سماعه، وربما بسبب ذلك الصوت الخفى كان لسانى ينطلق مفلوتا فى غالب الأوقات بلا رابط.

مرة قلت لروحى:

«جرب السكوت وبعض البلادة حتى لا تنعجن حياتك أكثر مما انعجنت، اجعل من أذنيك المستجيبتين للسماع المرهف نفقا علويا مفتوحا لتمرير الكلام».

وقلت لروحى :

«أبوح لأول من يصادفنى بتفاصيل المنام القديم وأحرم زوجتى من إحساسها الدائم بأنها الوحيدة التى تعرف سرى الخطير وتحفظه وربما يا ولد تفسد بالبوح تلك الهواتف المتسلطة عليك والتى تدفعك إلى تلك الحالة من حالات التفاصح التى تتسبب فى خسرانك على طول الخط، بينما يتقافز ويعلو من هم أقل منك طولا وعرضا

ومقدرة على الفهم والتفسير وإنجاز العمل».

عندما التقيت صديقى القديم فى منتصف الطريق بين بيتى وبيته، كنت قد عقدت العزم على البوح له بالسر، لكنه بادرنى بالهمس سائلا إن كنت على استعداد لسماعه لبعض الوقت فجاوبته بالموافقة، روى لى أنه رأى فى المنام حلما عجيبا لا يعرف تفسيره فحرك فى ذاكرتى كل الخبرات والمراجع التى تحسن تفسير الأحلام، قلت له «هات ما عندك فأنا جاهز للسماع»، ابتسم فى خجل قبل أن يروى لى حلما يتشابه فى جوهره مع حلمى القديم الذى ائتمنت عليه زوجتى وحدها منذ سنوات، اندهشت لأنه لا يختلف إلا فى بعض التفاصيل البسيطة فتشككت أنها تحاصرنى بالبوح لأصحابى وربما لزملاء العمل والرؤساء وأشباه الرؤساء، مما يتسبب فى تعريتى أمامهم وأنا الموهوم بأننى رجل مستور وغير مكشوف، وبدا لى أننى لم أعد بقادر على سماع صوت صاحبى القديم أو الرد على إشارته الكثيرة بالأصابع وغمزات العينين وحركات الشفتين، كنت أبادله إشاراته بإشارات مماثلة،

وأشعر فى نفس الوقت بأننا فقدنا التواصل المفترض أنه يجمعنا، تباعدنا على نحو مفاجئ إلى حد مؤسف رغم وجودنا فى نفس المكان، ولم يكن لدينا مفر من ترك المكان والسير فى اتجاهين متعارضين.

من يومها وأنا ساكت أرى وأتظاهر بأننى لا أسمع، انبنى بينى وبينها جدار وهمى عزلها عنى وعزلنى عنها بفعل فاعل خبيث أو مجموعة فعلة خبثاء، كأنما انكتب علىَّ أن أعيش فى الواقع كابوس المنام الصعب وتذكرت وصاياها القديمة:

«علتك الكلام ودواؤك السكوت والحذر من الحبيب الحبيب قبل العدو».

العربى أكتوبر ٩٦

*** أحمد الشيخ**

– أحد الكتاب البارزين فى جيل الستينيات، صدرت له رواية «الناس فى كفر عسكر» على ثلاثة أجزاء هى : «الناس فى كفر عسكر، حكايات شوق، حكايات المدندش.

من مجموعاته القصصية : «النبش فى الدماغ، مدينة الباب المفتوح، كشف المستور، الحمام الصيفى، البحر الرمادى، نصف الساعة السعيد.

ومن أعماله فى مجال الكتابة للطفل : عسكرى الشطرنج الأبيض، القط الكسلان، نخلة حازم، العصفور الأخضر الترجمان.

*** عمر جهان**

– أحد الفنانين العرب المتميزين ليبى ميقيم بالقاهرة منذ عام ١٩٧٥.

– حصل على ليسانس فلسفة وعلم اجتماع – كلية الآداب بنغازى ١٩٧٣

– أقام عدداً من المعارض منها : السكون المشمس ١٩٨٣– التحولات ١٩٨٧– إشارات وشواهد ١٩٩١– كهفيات الحبر والشمع ١٩٩٢ – بورتريه الحجرة ١٩٩٤ – الأقنعة ١٩٩٦ – لوبيات ١٩٩٨.– كما شارك فى تأسيس عدد من الجمعيات الشعرية منها : جماعة إضاءة ٧٧

الفهرس

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٦٨- مكاشفات شخصية .... شعر : بهاء جاهين
٢٦٩- أقانيم .... قصص : اسماعيل البنهاوى
٢٧٠- مرايا الذات الأخرى .... رحلة : صبرى حافظ
٢٧١- ديوان غزالى .... كابتن غزالى
٢٧٢- الصنم .... رواية : أشرف الخمايسى
٢٧٣- منازل القمر .... قصص : سُمية رمضان
٢٧٤- مواقيت البهجة .... قصص : عزت القمحاوى
٢٧٥- عضم خفيف .... شعر : سعدنى السلامونى
٢٧٦- حافة الود .... رواية : نبيل نعوم
٢٧٧- صانع الصدمات .... قصص : أسامة خليل
٢٧٨- السبعة .... شعر : عادل عزت
٢٧٩- عشرين سنة على سلم المترو.. شعر : حمدى عبد العزيز
٢٨٠- ضرورة الكلب فى المسرحية... شعر : جرجس شكرى
٢٨١- نجع السلعوة .... رواية : أحمد أبو خنيجر
٢٨٢- طائر الفخار .... شعر : محمود نسيم
٣٨٣- كائنات هشة لليل .... رواية : صلاح والى

٢٨٤- قبض الريح .... قصص : شحاته عزيز جرجس
٢٨٥- أغادر جسدى .... شعر : أحمد السواركه
٢٨٦- بعدين .... شعر : صلاح الراوى
٢٨٧- الوفاة الثانية لرجل الساعات..... رواية : نورا أمين
٢٨٨- عبير الكمنجات .... شعر : عزت الطيرى
٢٨٩- نتهجى الوطن فى النور .... شعر : سمير الفيل
٢٩٠- رائحة النعناع .... رواية : حسين عبد العليم
٢٩١- امرأة يروق لها البحر.... شعر : عبد الناصر هلال
٢٩٢- قوة الحقائق البسيطة............ شعر : عزت عامر
٢٩٣- شهيد الوطن ..... شعر : متولى عبد اللطيف
٢٩٤- الكوشة .... رواية : أمين ريان
٢٩٥- عالم تانى .... شعر : عمرو حسنى
٢٩٦- جاليرى يعرض صوراً مسروقة شعر : أحمد مرسى
٢٩٧- حديث الحجرات .... قصص : مجدى حسنين
٢٩٨- أبناء الخطأ الرومانسى............. ياسر شعبان
٢٩٩- بيت النجار .... عبد الحكيم حيدر
٣٠٠- موسيقيون لأدوار صغيرة.......... فتحى عبد الله
٣٠١- بدرية الاسكندرية .... حسنى بدوى
٣٠٢-المسروق فضاؤه .... يوسف وهيب

رقم الايداع : ٢٠٠٢/٣٢٣٢

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)